

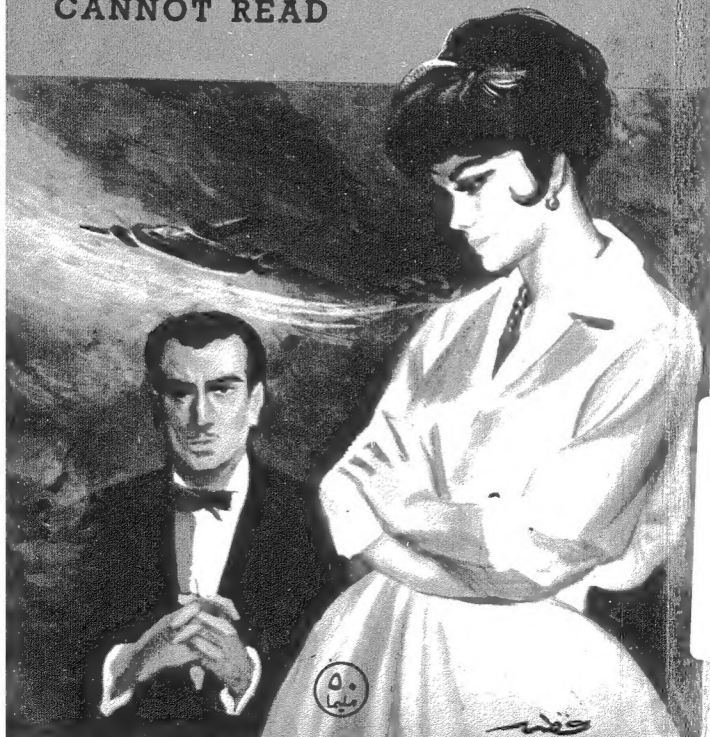
عالمية



روایات

سابی

THE WIND
CANNOT READ



روايات عالمية

العدد رقم ٣٤١

ساجد

تأليف: ريتشارد ماسون
ترجمة: السيد وفائي

الكتاب الاول

الفصل الاول

استغرق خروجنا من الأدغال شهرى أبريل ومايو بطولهما •
وكان متعبنا ان يكون عيد ميلادى فى آخر شهر ابريل ، وكنت قد
راحت بتر على أنه لم يتج لى أن احتفل بهذا اليوم • ووعده بأنه
يستطيع أن يحصل على ساعتى الذهبية اذا حل يوم ٢٧ أبريل دون
أن نحتفل بهذا العيد وكانت الساعة فى حالة جيدة تستحق منه هذه
المخاطرة •• وقد كان رهاننا على الساعة من ناحيتى ، وعلى خاتمه
المنقوش عليه اسمه من ناحيته • وقال لى أنه لوصح عاتوقته من
عدم استطاعتنا الاحتفال بهذا اليوم ، فانه لن يترك خاتمه معى لقمة
سائفة لليابانيين ينتزعونه من جنتى بعد موتى • وفى الحق أن أحدا
منا لم يكن ليأمل فى أننا سنخرج من هذه المجاعل الى عالم الحضارة
مرة أخرى •

وكان كل ما يعنيننا ، أن نشق طريقنا لنخرج من هذه الأدغال
منسحبين • وكنا نسير على غير هدى ، بعد أن زحف اليابانيون
وسدوا علينا منافذ الطريق • وقد خلفنا وراءنا كل معدتنا ، اللهم
الا أسلحتنا التى نحملها ، والقليل من الماء والأرز •

وسقط منا الكثيرون اعياء ومرضا • وكنا نتركهم ، ولا نترك
معهم الا بندقية وخمس طلقات • وكان من المقرر ألا نترك لهم غير
طلقة واحدة لنقص ذخيرتنا ، ولكننا تركنا لهم الطلقات الخمس
لنستعمل ضد اليابانيين ، أو فى انتهاء حياة بعضهم بعضا ، حتى
لا يقعوا فى الأسر •

وكان هناك كثير من المصابين بالحمى وبالدوسنطاريا . وكنت
أنا ممن أصيبوا بالدوسنطاريا ، ولكنها كانت خفيفة معدلة .
ولم يكدر حاشي شيء ، بقدر تلك القروح التي بدأت تؤلنى وترمى
فى جسدى ، حتى كانت تخترق طبقات بدنى لتصل الى عظامى .
وكنا ننام الليل الى بجانب الطرق ، اذا وجدنا لها اثرا فى
تلك الاحرار ، غير عابئين بالبعوض ولا بالفلاريا ، او حتى بالوحوش
المفترسة .

وكان الليل اشد وطأة على نفوسنا من النهار ، وبالذات اذا
ما غلبنا التعاس . فقد كان لنا فى النهار ما ندفع به عن انفسنا
وحشية المكان الفاسية ، كانت هناك الصحبة وما تدخله على
انفسنا من جلد على تحمل ما نقاسيه ، وكان هناك ما نشغل به
انفسنا من حرص على ما معنا من قطرات ، او من الزحف الى
منحدرات التلال ، وقطع المسافات التي قد تقربنا من هدفنا .
اما فى الليل . ومع ما يكتنفك فيه من غلام وسكون موحش ، فانك
تشعر بضالة شأنك ازاء ما يجسمه لك من مخاوف وسوء حال .
وفيه كنا ندرك ان علينا ان نعتد على انفسنا ، فلم يعد هناك جيش
بريطانى . او جيش هندى ، او الجنرال الكسندر . وما اظن
هذا الذى كنا نعيش فيه بانقل وطأة من كابوس الاحلام المخيف .
انك لا تشعر بالكابوس الذى يرسل اليك الرعب فى ساعات
نومك ، ثم تصحو لتجده حلما قد ولى . بمثل ما تشعر به من
هذا الكابوس الحقيقى الجائم فوق صدرك .

وصحونا ذات صباح لنجد ان بيتر قد ذهب عنا . ثم وجدناه
مقبلا علينا بعد مسيرة ميلين . وعلمنا منه انه قد خيل اليه فى
نومه ، اننا رحلنا عن المنطقة وتركناه ، فهب مذعورا ليلحق بنا .
وحدث بعد ذلك ببضعة ايام ان ايقظنى أحد ضباط الصف وهو
يصيح : « اننى اراهم انظروا » وأشار الى الأشجار فى ضوء القمر
وكان وجهه ينضج عرقا . ثم سألتى عن الوقت واستدار ليستسلم
للنوم من جديد . ولما تحدثت اليه عن ذلك فيما بعد ، لاحظت
انه لا يذكر شيئا عما كان منه .



وكان ينضم إلينا من حين لآخر بعض الهاربين من الخدمة في صفوف القوات المقاتلة الأخرى . وقد حوكم هؤلاء ، فيما بعد ، بالهند ، أمام مجالس عسكرية وادعوا السجن . أما نحن فلم نهرب من الخدمة ، لأننا لم نجد ما نهرب إليه أو منه ، ولقد حمدت الله فيما بعد أننا لم نترد في هذا الخطأ .

وهكذا كنا نتقهقر ، وقد تملك منا المرض وتشتت شملنا . . . وساءت حالتنا ، ولم يتصافد أن قابلنا في نقهقرنا يابانيا واحدا . اللهم إلا من رأيناهم في أحلامنا . أنها تلك الأدغال الموحشة وهذه الشمس المحرقة التي كانت تطاردنا وتفت في عضدنا . والله وحده يعلم كيف تيسر لنا أن نجتاز كل هذه المحن ، ولست أستطيع أن أصور لنفسى كيف خرجت من كل هذا العذاب سليم العقل قوى الروح . لقد كنا ننتظر الموت في كل لحظة ، وكنا نرى بخيالنا اليابانيين وقد عبثوا بجيشنا ولم يبرعوا للموت حرمة ولكننا لم نمت . . . ولاح لنا الأمل من بعيد في معسكر عند حدود الهند . ومن هناك نقلنا في العربات الكبيرة الى قطار سكة الحديد . وسار بنا القطار بحمل خمسمائة جندي وضابط من المرضى والجرحى . وكأني به سيجوب بنا انحاء الهند ، باحثا عن مستشفى يمكن أن يتسع لنا . وكنا نتخلص من موتانا بالمحطات التي نقف بها . وكان الأهالي يتجردون عن لباسهم الأعلى لنستعمله ضمادات لجرحانا .

وقضينا بالقطار ثلاث ليال طوال ، وكنا في اشد أيام الصيف حرارة ، وكانت المراوح الكهربائية معطلة . ورايت في حرارة الطقس مع رائحة العرق مع تلك الجروح ، بلاء لا يقل عما قاسيناه في بورما من بلاء .

ووصلنا الى كاتماندولا بعد ظهر اليوم الرابع ، ومن محطتها نقلنا الى المستشفى ، حيث اودعنا اسرتها ، ولم تكن الساعة قد وافت الخامسة ، وشعرت بان الموت قد ابتعد عني ، ولو الى حين عندما وجدتنى استلقى في فراشى الوثير وفي هذا الجو البهيج اللطيف ، وبين المعرضات في ملابسهن البيضاء النظيفة .

وتُحِبُّ الى ان هذا هو النعيم ، أو ان النعيم لن يَكُونْ اقلْ من ذلك . فتلک الاغطية البيضاء الوفيرة ، وملائكة الرحمة من الممرضات غاديات رائحات ، وآلهة الطب وأيديهم فى قفازاتهم الجلدية . كل ذلك لا يقل روعة عنه ، سيصعد الانسان الى السماء من دغل الدنيا مجهدا ملطخ الجسد ، وستلقفه ايدى الملائكة فتزيل عنه كل ما علق به من وعشاء السفر وتعيده نظيفا بهيجا ، بعد ان تضمنت جراحه ، وتخلصه من أوشاب روحه وما كان عالقا بها من حقد ومرارة وحزن ثم ينهض ليخطر بين الزهور والعيون الجارية ، نقى النفس على الروح ، هذا هو النعيم المقيم .

ولم تكن هناك أزهار ولم تكن هناك عيون جارية ، ولكن كانت هناك فى هذا المستشفى الدعة والأمان ، وهما النعيم بالنسبة لى بعد كل ما قاسيت وعانيت . ولكم صحوت من نومى فى بعض الليالى فجأة ؛ لانحس مسدسى فى رعب تجعدت منه اطرافى ثم يتحقق لى ان ما رأيته وأثار الفزع لدى لم يكن أحد اليابانيين بل هو أحد أعمدة الشرفة خارج غرفتى ، فأعود الى فراشى مستلقيا فى استرخاء الطمأنينة والأمان .

وظللت ملازما فراشى ثلاثة أسابيع كنت لا اغادره أثناءها الا الى مقعد بالشرفة لأسترخى وأفكر . ولم استطع جمع اشتات فكرى لأول وهلة . كنت اشعر اننى فى ناحية جسما ، وفى الناحية الأخرى عقلا . وجلست استعيد لى ماضى الصبا الوداع الهادى فى بلادى ، ثم هذا الحاضر البغيض فى أبشع صوره ؛ تلك المجزرة البشرية الدائرة فى جميع أنحاء العالم .

وقنعت من حالى بما أنا فيه ، ووددت لو استمر بى ذلك . . وظببت نفسا بجلساتى بالشرفة ادخن وأفكر فى أمن ودعة ؛ محتميا بها من أشعة الشمس المحرقة ، ومن سفير الحرب المهلكة ولم أكن أريد لى أكثر من هذا . لا نساء ولا خمر ولا رقص ولا راديو . لا شىء من ذلك كله غير ما أنعم به من هدوء وبعد عن الكل ضجيج . وهذا هو السبب فى اننى لم أكن اتعجل بمبارحة المستشفى . الا انه كان يجب على أن أفسح لغيرى مكانا ، فمُنحت

اجازة لمدة شهر ورحلت الى سملا . وتسلمت ما تجمد لى من راتب واجور ، وقضيت فى هذه البلدة وقتا جميلا فى بطن الوادئ الذى يعلو عن سطح البحر ستة آلاف قدم بعيدا عن الجو الحار الخائى المترب ، تحنو علينا جبال الهملايا بقممها التى كستها الثلوج . ووقفت الى تابع لطيف المعشر يدعى باهادور يتكلم الانجليزية ، استطاع أن يفهمنى ويحيط بميولى ، وزادت مكانته فى نفسى ، لأنه كان يحترم نفسه ويحترم أسرته ولا يتحدث عنها الا بكل خير .

ومع كل مساء ، كنت اجلس فى حديقة الفندق ، انعم بشرايع الجن بالليمون ، داعيا الى الله الا ينقضى هذا الشهر أبدا . الا اننى فى الوقت نفسه كنت اتوق لرؤية اصدقائى ، وبالذات بيت الذى كنت لم أراه منذ ستة اسابيع ، بعد أن ترك المستشفى فبلنى وسافر الى مدراس . وبدأت ادرك ، بعد تكرار الليالى والأيام الذى بيعت فى النفس الممل ، انى لم اخلق لأعيش بين السحب ، واننى اتوق الى الهبوط الى الأرض وما تضطرب به من حياة .

والانسان لا يملك من أمر نفسه شيئا ، وبالذات اذا كان هذا الانسان طيارا ، وكان قد آن الاوان ، ورحلت فى اوائل شهر سبتمبر الى دلهى ، واصر باهادور أن يصحبنى ليعتنى بأمرى .

الفصل الثانى

كنت أعرف اننى انتهيت كطيار ، ولم اكن أسفا لهذه النتيجة . وقد بدأ هذا معى فى بورما . بدأ باختلال ميزان بصرى أكثر من مرة ، وكادت طائرتى تتحطم بى . وأعفيت من قيادة الطائرات ، وكنت أقف بالمطار أراقب زملائى وهم ينطلقون بمقاتلاتهم ، والحسرة تعتصر قلبى فى أول الأمر . ثم كانت مغامرة الأدغال بعد ذلك ، فأنستنى حنينى الى الطيران ، ولم يعد يعنينى من أمره أى شيء .

وامام لحنة الفحص الطبى بدلى ، حاول قائد الجناح ال
ينخف من وقع الفرار النهائى على نفسى ، وهو يربت على
كتفى قائلا :

- مهما يكن من امر ، فستحاول ان نجد لك عملا اوريا
مناسبا .

وكما سبو ، ان قلت ، فان مغامرة بورما قد غيرت من مشاعرى
وانجاهات فكرى . ليكن ما يكون ومن يدري الى متى ستستمر
هذه الحرب فى اوربا وفي آسيا . وما اظن الا انها ستطول ،
وستقاسى منها الامرين فى هذه السهول الجرداء بالهند ، وتحت
حرارة هذه الشمس اللافتحة . واخيرا ابتسمت فى وجهه وهو
يصافحنى ويسلمنى الوثيفة التى وقعها . وسألته عن اسم احسن
حانة فى دلهى فدلنى عليها وهو يهز يدى مبتسما .

وخرجت الى الطريق اسرع فى خطاى وما ان شعرت
بالاجهاد والعرق ينصب من جبينى ، حتى ناديت احدى عربات
«الطنجة» ، وامرت سائقها بالتوجه الى حانة دافيكو . وسألته
ان يسير بى الهوبنا ، وكأنه فهم عكس ما اريد فألهب ظهر جواده
بالسوط ، واندفعت العربة تهتز بى يمينا ويسارا ، وحمدت الله
عندما وصلنا وتقدته اجره .

ودلفت الى الحانة لىرى بيتر جالسا مع مرقين بنتلر .
وكانت مفاجاة مذهلة . ولم ندر كيف نبدا الحديث . فقلت
اخيرا :

- كان يجب ان اتوقع لقاءك فى احدى الحانات .

- اننى هنا لاننى وفقت الى احسن مكان يقدم فيه الويسكى .
- هكذا وفقت سرىعا ؟ .

- اننى هنا منذ عدة اسابيع .

وجلسنا نتبادل الحديث والآنخاب . وشعرت بارتفاع حالتى
العضوية ، ونسيت سيملا ، ونسيت وحدتى ، وغمرنى فيض من
السورور لاننى التقيت ببيتر مرة اخرى ، حتى ولو كان بصحبة
ميرفين الذى لم اكن اميل اليه كثيرا . لقد صاحبنى بيتر فى

الطريق من انجلترا ، ثم فى بورما ، ثم فى ادغالها . ولم يكن بيتر قد تجاوز العشرين من سنى حياته . حيث كان فى طريقه الى جامعة جرينويل ليتعلم اللغة الفرنسية عندما اندلعت نار هذه الحرب . ومن هناك حاول ان يعود الى وطنه ليتحقق بقوة الطيران الحربية ، ولكنهم قبضوا عليه فى اسبانيا بعد عبوره حدودها الشمالية عند جبال البيرينيز وأودع السجن ستة اشهر . وما ان تقدم للخدمة العسكرية بعد ذلك حتى خذله الفحص الطبى فالحق بقوة مخبرات الطيران الحربى .

وكان يدعى بيتر ، ولكن كل من عرفه كان يفضل ان يدعو بالجرنون بسبب شاربته الكث الذى كان يعتز به كثيرا . وكان يجب ان يبدو فى سلوكه اشبه بالسيد الانجليزى المهذب ، وهو دور يليق به بحسب مولده فعلا . كما كان يميل للكتابة ولكل ما هو ممتاز من حديث وطعام وشراب .

وانبرى مرفق على حين غرة منا ، يعلن سحقه وضيقه بالمكان ، وانفجر غاضبا تهتز ثبراته حقدا وكراهية . ولم يدهشنا ذلك منه ، لاننا سبق ان راينا من هذا الكثير . واستطرد قائلا :
- ما كان اشد حمقى عندما وافقت على المجيء .

- المجيء الى أين ؟

- الى الهند طبعاً .

- آه ولماذا لم تطلب من وزارة الطيران أن تلتفى أمر سفرك الى ما وراء البحار ؟

- لقد كان يومى هذا .

- حقاً ؟

- أجل . فهناك اكثر من سبيل كنت أستطيع ان اسلكه ؛ ولكننى متردد ، وكثيراً ما أزعج بنفسى فى المآزق نتيجة لترددى هذا .

- كان يجب ان تمر بما قاسيناه فى بورما .

- اعرف ما كان من امرهم هناك . ولكننى ما كنت اطبق شيئاً

عما تشير اليه وكان من الجائز أن اطلق النار على نقى خلاصا من هذا العذاب .

— معك الحق .. لقد كان عذابا .. وای عذاب .

وهنا تدخل بيتر في الحديث متندرا ، بأن ميرفين قد قرو الانتحار احتجاجا على سجن المهاتما غاندى .. فقال ميرفين محتداً

— اننى سأنتحر احتجاجا على سجنى انا فى هذا البلد .

— وماذا به وماذا بالبلد ؟ . اننا نحبها جميعا .

— قد تكون محبسة فى ظروف غير هذه . اننى لا محالة عائد

الى وطنى .

فانبرى بيتر قائلاً .

— انك ذاعب اى بومباى .

ثم التفت الى قتر :

— اظنك لم تعلم بعد بذلك يا ميشيل ؟ اننا جميعا ذاهبون

الى بومباى .

— انى لك هذه امسرات ؟

— ان بومباى بلد جميل . فهناك فندق تاج محل وشواطىء

جوهو ، وهناك اجل من وقع عليه نظرك من نساء . الا ان هذا كله ليس هو انسبب فى رحيلنا الى هذا البلد . اننا ذاهبون الى هناك لتلقى دروسا فى اللغة اليابانية .

— ما اظن انه سيكون بوسعى تعلم هذه اللغة .

— لا ، لا . لاخذنى . لقد زكيتك عند قائد الاسراب وأخبرته

بانك تعاملت اللغة الحربية فى ثلاثة اسابيع دون حاجة الى من يلقنك دروسها .

— واكننى ما كنت تعلم بأن هناك لغة صربية .

— ولا قائد الاسراب — وهذا بالذات ما جعله يصدقنى — وما

هيك الا ان تخبره بننى كنت ابالغ فيعجب بتواضعك ، وترفع

مكانتك فى عينه . ما اظن الا اننا سنقضى وقتنا طيبا معا ، معا فى ذلك مرفين .

وبعد ان انتهينا من الشرب ، تركنا الحانة لنجد مكانا يمكن ان نتناول فيه غداءنا . واهتدينا الى مطعم صينى ، وسألنا الساقى ان يائنا الطعام بأفخر أنواع النبيذ . ولكنه أشار علينا بأن النبيذ لا يتفق وهذا الجو الحار . وتبادلنا الراى ووجدنا انه على حق فيما يرى واكتفينا بشرب الماء مع غداثنا المكون من الأرز والشريطة .

وتوجهت بعد الظهر الى مكتب القيادة حيث قابلنى قائد الأسراب فى قسم المخبرات . واعترفت له بأننى لا أعرف شيئا عن اللغة الصينية . وان كنت ألم باللغتين الفرنسية والاسبانية . فراح يتحدث الى باللغتين فى طلاقة ، ثم استفسر منى عما اذا كنت راغبا فى تعلم انيابانية . وكان ردى بالإيجاب وبأننى توافى الى ذلك . فأضاف اسمى الى قائمة كاذبة أمامه قائلا :
- ستبدأ الدراسة يوم الاثنين القادم . يمكنك أن تستقل قطار القذ .

الفصل الثالث

- ١ -

لم يكن الطريق بين دلبى وبومباى لحتلف عن سائر طرق الهند ايمساز عنها فى شىء . ولم تكن لتجد غير مساحات شاسعة تمتد على جانبيه حتى الأفق . بأنهارها وغربنها وأحراشها . ولم يكن بالمحطات ما يغرى المرء بترك مقعده بالقطار .

ولاحظت على رصيف احدى المحطات التى توقفنا بها ، لافتة عليها اسم « دهانابور » ، وتذكرت أننى تعرفت بالمدرسة التى كنت

بها في انجلترا ، بنواب ، هذه المقاطعة • وكنت أتمثل في خاطري
أراضيهِ وممتلكاته مساحات عريضة من الأدغال والغابات ، بعد ما
كنت أسمعه منه في أحاديثه عن صيد النمر وغيرها من حيوانات ■
ولكنني رأيت أن القطار يجتاز صحراء شاسعة تتناثر فيها القرى
هنا وهناك في غير نظام أو تنسيق • ومع ذلك فقد وقع بصري على
قصر منيف رائع ، علمت من مفتش القطار أنه قصر « النواب » الواسع
الثراء • والذي يدعو اليه عليّة القوم في الهند من حين إلى آخر ■

واقترح علي مرفين أن أكتب لصديقي لعله يدعوني لزيارته في
قصره • وأجبتُه بأنني أنهيب زيارة المهرجات والقصور الشرقية ■
ومعنا يكن من أمر فقد عقدت النية علي عدم محاولة شيء من هذا
القبيل ، إلا اذا ضقت ذرعا ببومباي

كان بمقصورتنا أربعة منا ، وكان بالأخرى المجاورة لنا ، ثلاثة
ضباط آخرين في طريقهم إلى بومباي لتعلم اليابانية أيضا • وكان
أحد هؤلاء ضابطا طيارا حاول أن يتظاهر أمامنا بمعرفته للغة الهندية
عندما كان يصدر أوامره للعاملين بالمحطة • وشعرت لأول وهلة
بالتعور منه • وكنت أخشى أن أكون قاسيا عليه في حكي هذا ■
حتى سمعت من بيتر ما فهمت منه أنه يشاركني شعوري ، فقلص
له :

— أنه يحاول بكل الوسائل أن يتقرب إلينا •

وكان رابعنا بالمقصورة ماريو فارغاس ، حسن المظهر ،
أوستقراطي النزعة ، لاتيني المنبت • وكان برتغاليا يتحدث الإنجليزية
بطلاقة تكاد تقترب من لهجاتنا • وعلمنا من مرفين أنه التقى به من
قبل في دلهي • واكدلنا أنه من أحسن الشخصيات التي التقى بها
في هذه البلاد ، وراح يعدد لنا محامده ووجدتني أتوجه إليه سائلا :
— لماذا التحقت بالقوات الجوية ؟ هل التحقت بها عن عقيدة ؟ ■
فأجابني :

— لقد صرحت لكل من أعرف بأنني مشترك في الحرب إذا ما
اندلعت نيرانها • وكان علي أن أصون جاه ورجي وأني بوعدى ■

فقال له بيتر :

- ترى لمن كان تصريحك ؟ الفتيات أختوريا ؟

فانبرى ميرفين مدافعا عنه :

- لا تصدقه • ان ماريو رجل مثالى من اخصص قدمه الى شعر
باسه ،

- لقد كانت مغامرة منى •

- ولكنك تستطيع أن تقلع عنها فى أى وقت تشاء وتعود الى
البرتغال غدا لو كان الامر كذلك •

- ليس الامر بهذه السهولة • تقول أنك ستلتحق بالقوات الجوية
لهم سرعان ما تنكص على عقبيك وتهرب من الميدان لأنك لم ترض عن
الحرب •

- لو كنت مكانك لفعلت ذلك • بل واننى لفاعله • الى ايجيم
هم وقواتهم الجوية وهذه الحرب التى لا اومن بها •

- سمعتك تردد هذا من شهور •

وتدخل بيتر قائلا :

- انه كاد يفقد عقله •

فعقب ماريو قائلا :

- انها حرارة الشمس •

وجلسنا ندخن فى سكون بعد أن احتسينا قليلا من الخمر •

وما كاد الليل ينتصف حتى قام كل منا الى فراشه • واضطجعت

فى سكون الليل أفكر مع حركة القطار الرتيبة وقد استقرت عيناى
بمسقف العربى ، لم أنام على هذا الفراش فى عربى هذا القطار الذى
يقطع قباى الهند من دلهى الى بومباى ؟ ثم استدرت فى فراشى
بعد أن أجهدتنى شتى الفكر ، واستسلمت للنوم لأريج ذهنى
المكدود ..

الفصل الرابع

- ١٠ -

وصلنا محطة بومباي بعد ظهر الجمعة • وتوجهنا الى احدى الوحدات العسكرية القائمة بضواحيها • واستقبلنا اركان حرس الوحدة مرحبا ، وأمر لنا بسيارة نقلتنا الى فندق بشارع هاريسون تديره امرأة تدعى مس جاكسون ، فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، وسيمية جدابة لم تزل تفيض حيوية ونشاطا • ولاحظت أن الفندق نظيف الى ثاثة وقد زود بالمراوح الكهربائية فى كل قاعاته وغرفه • وما أن دلفنا الى الردهة حتى أسر فينيوك ، ضابط الطيران المتعجرف ، فى أذنى قائلا :

- بصفتى الضابط الأعلى ، من حقى أن يكون لى غرفة مستقلة • غير أنه لا مانع لدى من أن تشاركنى هذه الغرفة • فقلت له :

- شكرا • لقد اتفقت مع بيتر على أن نشترك فى غرفة واحدة •
- لا بأس • فليشترك معى فارجاس •

وارتقينا الدرج ، ولم تكن هناك حجرات مخصصة لشخص واحد وكان بكل حجرة عاملان • واحتل بيتر معى احدى الغرف ، واحتل ماريو وميرفين أخرى • أما فينيوك فقد سأله مس جاكسون أن يتبعها فى لهجة تكاد تكون أمرا ، الى غرفة مزدوجة كان بها ضابط قد وصل حديثا من كراتشى • وبعد أن اطمانت على راحتنا واحاطتنا علما بمواعيد الطعام ، تركتنا وانصرفت •

وقام باهادور - الذى لم يتخل عنى طوال هذه الرحلة - بنقل حاجياتى من حقائى واعدها أعدادا منظما حسب استعمالها ، ثم ذهب الى الحمام ليعده لى • وظل قائما على خدمتى حتى هبطت الدرج لتناول العشاء ، ثم انصرف ليبحث له عن سكن بحى السوق •

- ١١ -

وتوجهنا فى اليوم التالى الى المدرسة لمقابلة اولى الامر بها . وكانت عبارة عن شقتين فى احدى العمارات الحديثة التى تطل على الميناء . ومن نوافذها كنا نستطيع ان نشاهد ناقلات الجنود القادمة من انجلترا . ولطالما كنا نقف بهذه التواقف ، فيما بعد ، نتأمل ما فى الميناء من عدة الوطن ، منصرفين عن التفكير فى اللغة اليابانية واليابانيين .

وكان ناظر المدرسة بريجادى متقاعد عالى الثقافة لطيف العشر ، انيقا محافظا . وعلمنا انه قضى فى اليابان الكثير من سنى حياته التى تقترب من الخمس والستين . ولطالما استمعنا اليه وهو يتحدث فى اطناب عن الشعب اليابانى وعن ثقافته وفضائله حديث العالم الخير .

وجلسنا فى قاعة الدرس نستمع اليه ، وبدانا بالسؤال التقليدى عن مدى ماثلم به من اللغة اليابانية . ولما ادرك من اجابتنا اننا لا نعرف منها شيئا ، اخبرنا بأنه يحسن بنا أن نبدأ دراستها من اول الطريق . وشرع فى اختبار مدى ما يعلق بأذهاننا منها بمجرد كتابته على السبورة ، ثم ازالته فورا وهكذا ، حتى قرر اخيرا أن ننقسم الى مجموعتين ، بعد أن عرف مقدرة كل منا . وكنت فى رأس المجموعة الاولى . وكان معى فى نفس المجموعة فينويك وببيترو وبعض الضباط الآخرين . اما ميرفين وماريو فكانا فى مجموعة أخرى .

واخيرا اعلننا البريجادير بأنه سيقدمنا الى المدرسين . وتقدمنا الى القاعة العامة حيث وجدنا أربعة من اليابانيين جالسين بطالعون الصحف . وما ان وقع نظرهم علينا ، حتى نهضوا عن مقاعدهم وانحنوا لنا محبين . وعلمنا انهم كانوا بالهند عندما اعلنت الحرب . وصافحنهم بدا بيد . وسمعناهم يرحبون بنا بالانجليزية . وسمعت البريجادير يقول :

= سيكون عدد المدرسين خمسة بعد بضعة ايام . انهم كى
الطريق الينا من انجلترا . ستبدأ الدراسة يوم الاثنين صباحا .
ارجو ان يوافقكم بدؤها فى التاسعة والنصف صباحا .

- ٣ -

واننى وان كنت لم اتوقع وجود مستر هيدلى بمكتبه يوم
الأحد الا اننى توجهت الى رقم ٢١١ بشارع كورنو اليس لعلى اجد
صادقة . وكنت قد اعطيت اسمه وعنوانه قبل مغادرتى انجلترا
ولا اعرف كيف ظل الاسم والعنوان عالقين بذاكرتى ، بعد
فقدت المذكرة التى دونتها بها فى بورما .

وكنت قد سمعت عن هذا الرجل الكثير . الكثير مما يجعله
اقى مصاف القديسين وكنت ارجو ان اجد فيه عونا كبيرا على
تعريفى بكل ما فى بومباى . وفعلًا لم اجد مستر هيدلى فى مكتبه
ووجدت فى مقعده شابا هنديا رجب بى واخبرنى بأن مستر هيدلى
سيعود فى الثانية عشرة . فانصرفت لأعود فى الموعد الميعن .

ورحت اقطع الوقت بالتسكع فى الطرقات ، بين اناس لا اعرف
هنهم شيئا . كنت غريبا بكل هذه الكلمة من معنى . لم اكن اعرف
كيف يتمددون ولا كيف يحبون وكيف يدخنون ولا كيف يلهون
الى غير ذلك من عادات ، واسرعت اعود ادراجى الى مكتب مستر
هيدلى ، الذى وجسده جالسا الى مكتبه ، فرحب بى وقدم لى
مقعدا بين اكوام من الكتب فى كل مكان ، وفى غير نظام ، يعكس
وجال الأعمال الانجليز ، الذين يعرف الناس عنهم ذلك .
لم سألنى من اكون . . فاجبته :

- ميشيل كوين .

- كوين ؟ . انى لم اعرف احدا بهذا الاسم من قبل . من اى
صلاح انت ؟ فانا لا اعرف كيف افرق بين حلكم الرسمية .

- تصابط بالقوات الجوية .

- حسن . قلتم كنت لتناول الفداء معى . كيف حركت
هنأتى ؟ .

- لقد أعطتنى مسز بوستوك عنوانك ، قالت لى انكما تعارفتما
فى برمنجهام .

- مستر بوستوك ؟ . اننى لا اذكر شيئا عن هذا الاسم .

- كان اسمها بيريز فورد قبل الزواج .

- آه . تذكرت . لوسى بيريز فورد . انها سيدة فائنة - لقد
كنت معجبا بها فى يوم من الأيام .

- هى صديقة لوالدى .

- لا بد وانها قد اقتربت من الخمسين الآن . ولكننى لا افكر

فيها الا كابنة العشرين . وهل كان والدك من المعجبين بها
الآخر ؟ .

- لست ادرى .

- ومن هو بوستوك ؟ . هل كان زميلها فى السرك ؟ .

- اظن انه كان يعمل فى صناعة الدراجات .

- ووالدك ؟ .

- يعمل فى الاعلان .

- لعله قانع بعمله .

- اعتقد ذلك .

- هل قابلت مساعدى ؟ .

- نعم . عندما جئت فى الصباح .

- انه من طبقة المنبوذين . او قل طبقة المظلومين . وسنتهم

يشقون طريقهم فى الحياة الآن . وسيكون فى خدمتك اذا اوجعت

والآن الى الفداء . . .

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام ، خرجنا معا الى شارع

المهاتما غاندى فى اتجاه فندق تاج محل . وقلت له ونحن في

الطريق :

- خبرنى بشيء من الهند .

- عن الهند ؟ بكل تأكيد . مساحتها حوالى مليون ونصف ميل مربع . وعدد سكانها حوالى اربعمائة مليون نسمة . وبها حوالى خمسمائة الف قرية ، وثلاث وثمانون مدينة كبيرة .

- لا . لا . لا أريد احصاءات .

- يضع الهندوس فوق رؤوسهم العمامة ، ويضع المسلمون الطربوش ، أما البرهميون فيضعون القبعة فوق رؤوسهم ، وهى أشبه ما تكون بحافر البقرة . وهم يدفنون موتاهم فيما يسمونه بابراج او « بروج النسمت » وتستطيع ان تراها هناك اعلى تلال مالابار . وماهى الا نصف ساعة حتى تاتى عليها النور . وهو اجراء صحى سليم

- اهذا كل شيء ؟

- هل تريد ان تعرف كل شيء عن الهند ؟

- اجل . لأننى ستعيش هنا .

- اذن فما عليك الا ان تقضى فى الهند ثلاثين عاما حتى يتيسر

بك ان تام بشيء عن الهند ، والآن استودعك الله لانى على موعد .
هيا نمتع بشبابك انه ايام من العمر لا تعوض .

- ٤ -

واستلقيت فى فراشى اتمل المروحة الكهربائية ، وافكر فيما سمعته عن ايام الشباب ، محاولا ان اتبين فى حاضر شبابى هذا العمر الذى لا يعوض . اى شباب هذا واى جمال احاط به لقد كنت فى العشرين منذ خمس سنوات عندما انتهيت من دراستى . وها انا الآن - اجدنى مضطرا للتسليم بالأمر الواقع ، فلم اعد بعد هذا الشاب الذى يخرج الى الحياة وقد تفتحت امامه آفاقها . لقد اقبلت الحرب ، وها هى لم تنته بعد ، وما أن تضع اوزارها حتى اكون قد أصبحت رجلا فى مقتبل العمر . ان شبابى قد انتهى فى عام ١٩٣٩ مع بداية هذه الحرب .

وبئت فى مكانى . وقد استقرت عيناي على المروحة . وشعرت فى اعماق نفسى بفراغ كبير . فراغ ممتزج باحساس من الضياع

افراغ لم أشعر به من قبلَ عندما كنتُ اجلس الى المدفأة اقرأ كتابا
او عندما يخيل الى اننى مولع بشيء ما . فراغ لم أشعر به فى أية
لحظة من لحظات حياتى فى اتجلترا . هذا الفراغ ، الذى لازمنى
الاحساس به هنا فى الهند بعد ان اجتزت حومة الوغى ، هو الذى
دفعنى للشراب لينسبى ما أنا فيه من ضياع ، وهو عندى تسليم
بالهزيمة على طول الطريق .

وتجسم الأمر لى . وبدأ بشعا خطيرا . وفكرت فى تلك الأيام
والشهور والاعوام . اننى تنسّخ من عمرى؛ ولن تعود . ان الأمل
العريض الذى كنا نشده أيام الشباب الأولى لايجعلنا نشعر حتى
بهذا الفراغ ان قدر علينا . وبئوى الرجل منتصف العمر من
قيمة هذه الأيام ، ويجد نفسه وقد بدأ يحصيها ليعرف كم تبقى
له منها . ان كل ما تبقى لى بعد هذا الذى فقدته من عمرى هو
الايمان الصحيح الذى يملأ فراغ قلبى . هذا الايمان الذى يملأ
قلبى اشبه بقبس من نور الله . اننى فى اشد الحاجة اليه الآن .

وحاولت أن اتجد بتفكيرى هنا وهناك ، ولكنه كان يعود لى
ليستقر فى حاضرى . فى هذه الحرب التى لا يعرف الا الله متى
ستنهى . وفى اننى لم أعد بعد فى عنفوان الشباب . وفى اننى
لا أستطيع ان اكيف حياتى كما يحلو لى .

اننى الآن بكيانى كله ، جسما وعقلا ، حيث قدر لى ان اكون
« لاسعنى الا أن أقول من أعماقى هذا هو مصيرى الذى لا أستطيع
الفكاك منه » ! .

واقبل بيتر على قاتلا :

— ترى لماذا اراك هكذا محزونا ياإسا ؟ اننى ما وابتك هكذا من
إقبل ، ولست أحب لك ذلك . هيا بنا الى الخارج حيث الحركة
والحياة . وتستطيع أن تفعل مثلى فتفرض عينيك عن مآسى الحياة
هنا . ولحسن الحظ انت لا نهبم شيئا مما يتحدث به هؤلاء
الناس .

— انك دائما هكذا . ثم ستعود لتحاضرنى عن حالة هؤلاء القوم
العقلية الى آخر ما تزعمه من مفاهيم .

— ولم لا يكون أحد أجدادى الأولين من هؤلاء . لعلنا نلتحق
على أنفسنا هذا العناء وتبيع فى عقر دارنا هنا بالفندق ، حيث
نجد النظافة والجمال وكل ما يباعد بيننا وبين تلك المخوفات .
وإذا أردت ، فهيا بنا الى فندق تاج لنتناول طعام العشاء ، ونحس
قليلا من الحمر ، ونتجاذب أطراف الحديث ، وتسرد على مسامع
مغامراتك السابقة مع النساء ، وتستعيد نشاط ذهنك وترفع من
معنوياتك .

الفصل الخامس

— ١ —

وبدأت أحب تعلم اليابانية . ويرجع ذلك ، فى معظم أسبابه
الى شخصية البريجادير المحبوبة ، والذي كان يجعل من ساعات
الدرس ، لحظات محبة الى نفوسنا ، متنوعة متغيرة الألوان .
وكان واسع الاطلاع ، يلم بالكثير من ثقافة اليابان وحياتها
الاجتماعية . وكان يحدثنا كثيرا عن اليابانيين وعن عاداتهم ، وعن
كيفية تبادلهم التحية عند اللقاء . وكان يقلد لنا حركاتهم وطريقة
انحنائهم . ولما انتقل الى الحديث عن المرأة اليابانية قال :
— ولكن من وبنى متحدثكم بكل شيء عنها . انها المدرسة
الجديدة التى سبق ان اخبركم بأمرها . ومن المنتظر حضورها
فى الأسبوع القادم .

والتقيت فيما بعد بالبريجادير فى نادى الريكيت ، حيث
يبادلنا الحديث عن مدى ما تقدمنا به فى تعلم اليابانية ، وابدئ
لى اغتيابه بتقدمنا فى دراساتها . واطرى سرعة المامى بمفرداتها
الغريبة .

— ان ماتلمته من شوط قد يعجز عنه الكثيرون . ستستفيد
من ذلك فيما بعد الحرب .

— لآلا —

- بعد الحرب لن اكون بحاجة اليها .
 - اذن الا تنتوى الذهاب اليها ؟
 - ربما لقضاء عطلة . اما ان امشي هناك ، فليس قى ثبتي اى
 قىء من هذا القبيل .
 - من يدري . ان الحياة كلها مفاجآت .
 - ساقضى بقية ايام حياتى فى انجلترا او فرنسا ، حيث
 يفهمنى الناس هناك فأحبهم ويحبونى .
 - ان اليابان لا تخلو من خيار الناس .
 - اننى متحامل عليهم . لقد قاتلتهم فى بورما . ثم طاردونا
 الى ادغالها ومجاهلها . ولطالما رأيتهم فى أحلامى أشبه بكابوس
 مزعج لا تنسى أنهم قتلوا شقيقى فى الحرب .
 - كان ذلك فى هونج كونج . لقد ارتكبوا هناك كثيرا من أعمال
 القسوة والوحشية .
 - أجل . انهم يستطيعون ذلك . وبالذات عندما يكونون
 عسكريا . انهم غلاظ القلوب لا يعرفون رحمة فى الحرب .
 - ولذلك تجدنى لا أحبهم .
 - بما فى ذلك الذين يعلمونكم اليابانية ؟
 - أجل . فهم يابانيون أولا وآخرا .
 - مس وبنى هى الأخرى يابانية . ما اظن انك ستكرهها هى
 الأخرى .
 - مهما يكن من امر ، فانى أعدك بالا أظهر شيئا من شعورى
 هذا .

- ٢ -

ورايت الباخرة تصل فى المساء . واستقرت فى الميناء
 الضامخة كالطود ، عظيمة ضخمة . وقاملتها من خلال نظارى ،
 ورايت على سطحها آلافا من الجنود البريطانيين . ثم رضى الليل
 همدوله واكتنفها ظلامه ، فلم نعد نرى منها الا أنوارها .

وكانت الباخرة لم تزل في مكانها عندما اقبل الصباح .
ووقفت اتاملها من نافذة قاعة الدرس ، ورايتها تتحرك في عظمة
وجلال ، حتى اختفت خلف النصب الحجري القائم عند مدخل
الميناء ، والذي يطلقون عليه « بوابة الهند » .

- ٣ -

اقبلت علينا في صحبة اليريجادير . وكان اليريجادير قد
قال لنا من قبل :

- ان مس وبي صينية الاسم فقط . وهي يابانية الأصل .
ولكنها تتسمى بهذا الاسم لظروف خاصة بها .

- وكنا نترقب حضورها جميعا ، لان احدا منا لم يكن قد
راى امرأة يابانية من قبل .

حضورها جميعا ، لان احدا منا لم يكن قد راى امرأة يابانية من
قبل .

وران علينا صمت مطبق ، ورحنا نتأملها وهي في مكانها بجوان
اليريجادير تخفض من بصرها في حرج من ان تلتقى عينها بأعيننا
التي تحديق فيها . وكانت رشيقة القوام ، ترتدى ثوبا صيفيا
بسيطا . وقال اليريجادير يقدمها إلينا :

- ها هي ، مس وبي .

فالتقينا إليها بتحيةة الصباح . وبادلتنا التحية مصحوبة
بانحناءة يسيرة ناديا بحكم العادة .

واستطرد اليريجادير قائلا :

- لقد قطعت مس وبي كل هذه المسافة من انجلترا لتساعدنا .

لم ابتمسم واحتل مقعده ودعاها للجلوس . فابتسمت واحتلت
مقعدها بجواره .

وسرت بين الحاضرين موجة اعجاب بها ، لقد اجتازت مس
وبي امتحانها الاول بنجاح . كانت جميلة . كزهرة نضرة في حقل
موحش من الطلبة والكتب والمناضد والسبورة السوداء . وظلت
أبصارنا عالقة بها لبرهة قصيرة واخيرا سمعت بيتر يهمس في
الذني قائلا :

- انها رائعة ؟

ووافقته متحمسا على رايه . فاردف قائلا :

- يالها من فصول دراسية !

- حقق الله آمالك .

- متى سيزايلها خجلها ؟

وكان من الطبيعي أن تشعر بالحرج وبالخجل أمام عشره رجال
يحملون فيها عشره رجال لم يقع نظرها عليهم قبل تلك اللحظة .

وبدا البريجادير الدرس ، بما القاه علينا من تعليمات في
أحسن السبل لمتابعة ماستلفنا اياه مس وبي . ثم تركنا وانصرف
وبعد ذلك سمعناها تقول لنا باللغة اليابانية :

- اذا تكرمتم بتوجيه أية أسئلة الى ، سأجهد أن أجيبكم
على ما يسألونني اياه .

فسألها احد الضباط :

- هل قضيت رحلة طيبة ؟

وأجابته :

- شكرا على اهتمامك بذلك . لقد كانت رحلة طويلة ،
حاولت أن أخفف من وطئتها بقراءة الانجليزية .

وكان امامها سجل بأسمائنا .

- الثاني بعده ؟ . كويين اليس كذلك ؟

وكنت أحاول أن أعد سؤالي مستعينا بالقاموس .

- هل حقا ما يقال عن الأزواج اليابانيين ، ومن أنهم عندما
يعودون الى منازلهم سكارى ، يجبرون زوجاتهم على الجلوس عنقا
أقدامهم لخلع أحذيتهم ؟ ..

فهزت مس وبي رأسها نفيا وهي تضحك في رقة وخفر ..
ثم أردفت ملحا في توجيه سؤالي :

- احقا ما يقولون ؟

- بماذا أجيبك ؟ انه لسؤال عجيب !

- أم لعلك لا تعرفين ؟

- اظن أنهم يفعلون هذا أحيانا . بعده ؟

ثم راجعت قائمة الأسماء .

- أهو فينيوك ؟ .

وفوجئت بأن أرى فينيوك يستشيط غضبا ويجهيها محتلا !

- أيجل ! .

- هل لديك سؤال ؟ .

فاجابها بالانجليزية :

- ليست لدى أسئلة ما . ولكن هناك مسألة أريد أن أوجه

نظرك اليها .

وضرب المضدة بيده ، ثم استطرذ :

- اننا جميعا من الضباط . ولقد اعتدنا أن ننادى بربنا »

وإذا كنت تجهلين ربنا فما عليك الا أن تستعملي كلمة مستر على

الأقل .

وخيم السكون على قاعة الدرس ، وجزعنا مما رأينا وسمعنا

واعتدرت مسي وبى ، فى رقة ، بأنها سمعت اليريجادير ينادينا

باسمائنا مجردة عن الألقاب والرتب . ولاحظت ان الدموع تكاد

تطفئ من مآقيها . واستدرك بيتر الأمر لينقذ الموقف قائلا :

- نرجو أن تطول إقامتك بيننا ، لأننا قد سعدنا بفدومك .

وقد تعدد أن يضمن هذه الكلمات العذبة كل ما يستطيع أن

يعبر به فى لهجته عن عدم تضامنا مع فينيوك فيما بدا منه من

بخشونة وقحة .

- شكرا . اننى غير جديرة بكل هذا الإطراء ، شكرا جزيلا .

وبعد أن انفض الدرس لم يحاول أحد منا أن يتحدث الى

فينيوك . وخبينا ظنه فيما كان يعنى نفسه به من تعليقات على

موقفه الذى كان بظنه مجيدا فى الدفاع عن حقوقنا . وتركناه

يتصرف بمفرده .

وكانت أصابعى لم تزل نائرة مما حدث . فاعتنوت لزملائى

بأننى ذاهب فى جولة ، وتواعدنا على اللقاء بالفندق . ورايت بعدة

مسيرة يضع خطوات أن أخرج على نادى الكريكت لاناوول كاسا

من الخمر بهدىء من نائرة نفسى . فعدت أدراجى ، وما أن اقتربت

من المدرسة حتى رايت مسي وبى مقبلة فى اتجاهى ، فقلت لها !

- هل انت فى عجلة من أمرك ؟ .

- فتوقفت وحملت في وجهي في دهشة وهي تقول :
- معذرة ! لست أدري لماذا أسرع هكذا ؟
 - لعلك تريدان أن تسرعى للائتمان عن المدرسة ؟
 - كلا . أرجوك ألا تفكر في شيء من هذا القبيل .
 - لعلك أسأت الظن بنا ؟
 - انك تستطيع أن تتكلم اليابانية بسهولة بالرسم من أجل
 - الواستك لها لم تزد عن شهر فقط .
 - اننى لا أعنى إجادتنا لليابانية ، اننى أعنى سلوكنا .
 - ماذا عن سلوككم ؟
 - ما كان من زميل لنا بشأن تجريدنا من ربنا .
 - ان الخطأ كان من جانبى .
 - ولكن احدا منا لم يهتم بذلك .
 - لقد كانت أول تجربة لى من هذا القبيل . ولم يكن من
 - اليسير على أن أواجه كل هذا العدد من الضباط .
 - هذا العدد لم يزد على العشرة .
 - لقد بدا لى لأول وهلة أنه مائة .
 - وعندئذ أقبلت عربة الفارى وتوقف بها قائدها ينادى :
 - فارى . يا صاحبي ؟
 - وعرضت على مس وبي ، أن أذهب بها الى حيث تشاء .
 - وطمت منها انها فى طريقها الى فندقها . ولكنها أصرت على ألا
 - تكلفنى هذا المناء . وأخيرا اصطبتها معى فى الفارى الى فندق
 - المساي فير الذى تقيم به .
 - كانت هذه أول مرة منذ شهور تجلس فيها بجوارى امرأة .
 - وان هذه الشهور لدى أشبه بعامين . وشعرت بغیض من الغبطة
 - والسرور . ورحت أتأمل جمال وجهها الدقيق وضواد شعرها
 - ودقة أناملها . وتواترت بخاطرى شتى الفكر ، لو أن هذا العالم
 - يكون نساء ، كيف يستطيع المرء أن يعيش فيه ؟ بل كيف يكون
 - المعوره فى عالم ليس فيه نساء ؟ ! وبدأت أشعر بكيانى . وفيما

تبادر الى ذهني انها يابانية . وانا اكراه اليابانيين وامقتهم .
وتخيلت حديثا دار بيني وبين بيتر يلومني فيه على نزعات نفسي
ورأيت أخيرا ان اقطع حبل هذه الأفكار بالحديث فقلت لها :

— ان ركوب الغاري خير من ركوب الطونجا في دلهي .
وهكذا دار بيننا حديث عن الهند ، وعن اهل الهند ، وعن
بؤس شعبها ، وعلمت منها انها لم تزر الهند من قبل . وعرضت
عليها ان نخرج على السوق قبل ان تعود الى فندقها فقالت لي :
— اتعرض على ذلك جادا ؟

— ولم لا ؟ . انه ليسرني ان نذهب معا .
— هل أنت واثق من انك لم تتسرع في دعوتك لي ؟ .
— ماذا تعنين بربك ؟ ! .
— اعني انني يابانية . . أم لعلك قد نسيت ذلك ؟ .
— كلا . ولكنك معلمتي قبل كل شيء .
— اذن هيا بنا .

وامرت السائق بالتوجه الى شارع تشاندرا جوبتا . وعلى
ناصيته ترجلنا من الغاري . وعلى الجدار المقابل لنا . وقع نظري
على الاعلان الكبير الذي كنت اراد في كل مكان من الهند .
كان الاعلان لوجه ياباني — وجه ياباني يتسم ابتسامة صفراء
بفيضة تكشف عن أسنانه وعن عينيه القاسيتين وعن وجهه المعبر
والى جانب الصورة كتب بالخط العريض « حذار من قناعات
الصدقة الزائفة ، انه قد يخفي خيانة اليابانيين وغدرهم » .

وتأملت وجه مس وبي ، وأدركت انها قد رأت ما رأيت . .
ثم اطرقت براسها الى الأرض واستدارت وتقدمتني الى السوق .
وبدانا جولتنا . كان كل شيء يبدو جديدا بالنسبة لها . فكانت
تقفز من هنا وهناك في خفة الطفل النرح بما يرى . ورحت
اتأملها معجبا مأخوذا . وبدأت أدرك انها أجمل من وقعت عليه
هينائي . ونسيت انها يابانية ، ولم أعد افكر فيها الا انها امرأة .
وبعد ان انتهينا من جولتنا ، شكرتني وكررت شكرها كما لو
لكنت اسديت اليها معروفا كبيرا . واستقلت هي اول غاري
هادفنا الى فندقها . ثم توجهت الى فندقى بدورى .

الفصل السادس

وبعد ان استقر بى المقام فى غرفتى بالفندق ، جلست اذحن لفافة تبغ فى هدوء . ونعمت بالهدوء بعد كل هذا الصخب .. ونعمت بجو غرفتى النظيف . وطاب لى المقام ، وطاب لى ما حلقت فيه من خيال ، فاشتعلت لفافة اخرى ، وواصلت تفكيرى فيما كنت مستغرقا فيه من استعراض لكل ما مر بى .. وما ان انتهى بى المطاف الى حيث اجلس ، حتى نهضت عن مقعدى وارتدت ثيابى عاقدا العزم على اللحاق ببيتر فى نادى اليخت ، بناء على المذكرة التى كان قد تركها لى بذلك .

وهناك وجدته يختسى الخمر مع مرفين وماريو ، وبعد ان شاركهم شراهم ارتقىنا الدرج لتناول طعامنا . وجلسنا الى المائدة وقدم لنا الطعام والنيبذ ، ثم بدا بيتر الحديث قائلا :

- بدأت احب يومبى .

فقال له مرفين .

- وهذا هو ما أخشاه . فقد بدأت انا الآخر ارتاح الى مقامى بها .

- ماذا تعنى بقولك هذا ؟

- اننى لا احب ان امش على هامش الحياة ..

ودار الحديث بيننا جميعا فى هذا المعنى ، حتى اشار ماريو من طرف خفى فى حديثه الى مقابلتى لمس ويى .. فقلت له :

- لقد كان الأمر بطريق الصدفة .

- وحتى ركوبكما الفارى ؟

- لقد عرضت عليها ذلك ناديا .

- او كنت تفعل ذلك لو لم تكن جميلة ؟

- او تعتقد انها جميلة ؟

قائري يتر مجيبا :

- وهل فى ذلك من شك . انها جميلة قائمة . اتنى لم اصادفها
بجمال عينها من قبل .

- لعلكم تحسدوننى على صحبتها لى .
- بكل تأكيد . وانى لاسف لان ما فعلته انت لم يدر بخلدئ .
- انا لم اعد لشيء مما حدث .

وهنا تدخل ميرفين فى الحديث قائلا :
- عليك ان تلزم بجانب الحذر .
- انها لا تفرق فى لونها عنى وعنك . لم اتنى لى عجب حى
لكل هذه الزومعة التى تشيرونها . ان الامر لم يتمد رغبتى فى
الاعتذار اليها عما يدر من فتويك .

وتعمدت ان اشتد فى لهجتى مرتفعا بنبرات صوتى :
- انا معك فى ذلك . لقد تجاوز الحدود فعلا .
وهنا تدخل ماريو قائلا :

- هذا تعالى هو الذى سيشق له طريق المستقبل .
- هترونه فى يوم ما قائد اسراب ، وسنظل نحن ضباطا عاديين .
ان حدة طباعه وانفته لن تنقص من قدره .

ودار بيننا حديث طويل حول بعض العقليات التى لم نزل
متألرة برواسب الماضى ، وتبادلنا وجهات النظر ، واقتربت آراؤنا
حينما ، والتقت حينما آخر . وغلبت على بعضنا النمرة المتعالية
القديمة ، وادليت بدلوئ فى المناقشة ، وقلت لزملائى ان الحرب
لقد غيرت الأوضاع ، وان الاذهان قد تفتحت لما لم تكن متفتحة
له من قبل . وسمعت ميرفين يقول تعقيا على آرائى متهمكا :

- لقد اتقضى عهد المسادى والقيم . ها هو ميشيل لا يرى
هائما من ان يدمو احد الهنود ايشاركه طعامه ، وها هو اخيرا يقع
فى جب فتاة يابانية .

فالتفت اليه وقلت له :
- انك مخمور .

- كلا . . ان ما احتسيه من خمر لا يذهب بالعقل . اتنى فى

اكامل وعيى . وليس ادلّ على ذلك من اننى استطيع ان اتبين كى
ملاح وجهك انك مدله بحب معلمتنا الجديدة .
- هراء .. اذ اننى لا يمكن ان اخاطر بهذا . انها جميلة ؟
ومثلها لا يمكن ان تكون خالية الفؤاد .
وهنا تدخل ماريو قائلا :
- اجل .. انه الحق بعينه .
ونخيل الى انه قال ذلك بلهجة الواثق مما يقول . فسالته :
- هل تعرف شيئا على وجه التحديد ؟
- اذا ما تلفت خلفك ، فستجد ما تشده منى . انها تجلس
هناك .

فاستدرت لأجدها جالسة الى منضدة تبعد عنا قليلا .. نعم
كانت هى مس وى ، وامامها رجل يضع عوينات سمكية على
عينيه ، عريض البجته ، اقنى الأنف ، رقيق الشفتين .. فقلت
معلقا :
- لعل فى ذلك ما يقنعكم باننى لا اتعقب الفتاة اليابانية او
املى على علاقتى بها اهمية ما .

الفصل السابع

- ١ -

توجهت فى صحبة بيتر وماريو الى ميدان سباق الخيل ، بعد
ظهور يوم السبت التالى . ورفض مرفق ان يشاركنا لانه كان فى
بحالة من حالات باسه وقنوطه ، التى كانت تعاوده من حين لآخر .
بل ولعله كان يبالغ فى ذلك حتى ينتهى به الامر الى حد الجنون .
الجنون الذى قد ينقله من الهند الى انجلترا .

- ٢ -

وتلى الحق أن ماريو هو الذى أوعز إلينا بالذهاب إلى ميدان السباق ، لعلنا نجد فيه ما يجدد نشاطنا ، ويذهب عنا ما نعاتيه من ملل وضيق . واشتد حماس بيتر للاقتراح لأنه كان يطمع فى الربح ، فضلا عما فى مشاهدة السباق من إثارة . أما أنا فقد صحتهما مجازاة لهما ، وإن كنت أفضل أن أقضى وقتى فى القراءة والدرس . بيد أننى كنت قلقا لا أستقر على قرار ، وكانت تتنازع نفسى تلك الخواطر التى سبق أن استبدت بها فى سمرام .

وبالرغم من حرارة الطقس ، إلا أن ميدان السباق كان يعج بالناس من كل الطبقات . . ورايت كثيرا من علية القوم ومن المهرجات ، وعلق بيتر على ذلك بأنه ما كان يدور بخلده أنه يجد بالهند هذا العدد الوفير من خيار القوم . ووجد ماريو بغيته من مشاهد الجمال الذى كان يمنى نفسه بها : سيدات الهند الجميلات وقد ارتدين السارى الحريرى المتعدد الألوان ، يفضن أنوثته وحياة وينهن السيدات الانجليزيات وقد تضاءلت أنوثتهن وانزوت فتنتهن . وبين تلك الباقات الجميلة المتعددة الألوان ، كان ماريو يخطر جيئة وذهابا ، تقديرا منه لكل هذا الجمال .

ودعانى بيتر لندرس الجياد قبل أن يراهن عليها ، وتركنا ماريو بنعم بأزهار المجتمع الهندى ، تذوقا للجمال فى نظرات بريئة .

وعدنا إلى المدرجات بعد ابتياع تذاكر المراهنة ، ولم نحاولا أن نبحث عن ماريو فى هذا الجمع المحتشد ، وجلسنا ندخن فى انتظار بدء السباق . ومنيت نفسى ، فى حالة الربح ، بدعوة مس ويبى للمشاء . وصارحت بيتر بذلك ، فضحك منى وقال لى ، أنك تستطيع هذا سواء ربحت أو لم تربح . قتلت له :

— ولكن هذا يجعل السباق أكثر إثارة .

فابتسم فى وجهى قائلا :

— إذن فقد صدق حدسنا عنك وعن مس ويبى .

وبدأ السباق ولم يوفق الجواد الذى راهنا عليه . واعدنا الكرة فى الشوط الثانى ، وعاد الحظ ليخوننا مرة أخرى . وتكرر ذلك فى الشوطين الثالث والرابع حتى نفد ما معى من نقود . وعرض

على بيتر أن يقرضني ما أريد ولكنني رفضت . وفي الشوط الخامس انفراد بيتر بالمرافعة وبيع مبلغا محترما وكاد يطير فرحا . . وبعد ان انتهى السباق وقفنا ننتظر ماريو عند الباب . واخيرا ابصرنا به قادما في الزحام وقد فاض وجهه بشرا . وقبل ان نسأله عما كان من امره . اندرنا هو بنفس السؤال . واحطناه علما بكل ما كان : وبما حققه بيتر من ربح ، واددنا نستفسر منه عما كان من امره فقال :

— أكثر من حققها .

— أنك لم تدر حمل معك المتبر من النمود .

— لقد ربحت احدى كلة .

— أنني لا أحب لاجبي والافاز .

— لقد كنت أسير .

وكان يحاول ان يخفى ما بداعب شففيه من ابتسام . ولكنه لم يستطع هذا لان وجهه كله كان يختلج ابتساما ، وكانت عيناه تلمعان بشرا وسرورا . وتركناه يسبح في خياله ، ولم نلح عليه بأسئلتنا حتى صرنا في السيارة ، وعندئذ عدنا نلاحقه بالسؤال تلو السؤال . واحيرا اتبع فضولنا قائلا :

— الحق أقول لكما . . لقد التقيت بأجمل فتاة على سطح الأرض .

فقال له بيتر :

— كان يجب على الا ادعك تغيب عن نظري .

— لم أكن لأتوقع أنني سأعثر على بفتى هنا .

— أبالك وأن تعنى بحديثك هذا احدى اللواتي يرتدين الساري ؟

— كلا . . انها فتاة انجليزية .

— فتاة محترمة ؟

— بكل تأكيد . . لقد كانت في صحة والديها .

— وهل تحدثت اليها ؟

— لقد شعرت بمجرد أن وقع بصري عليها بأنها فتاة ممتازة .

وظللت اتابعها بنظري ، دون أن أحاول اخفاء ذلك عنها . ثم اقدمت على التحدث اليها وكأنني أعرفها من سنين . ولقد كانت هذه أول

تجربة لى من هذا القبيل . وبدأت أومن بأن الأقدار تعد لنا مراحل حياتنا لحظة بلحظة . وأنها تضع المكان الصالح فى الوقت الطبيعى للشخص الطبيب باحكام وحسن تقدير . حتى اسمها له وقع جميل أخاذ . أنها تدعى « دوركاس » .

فعلق بيتر قائلا :

« فى الحق انه لاسم جميل » .

« لقد اشتركنا معا فى المراهنة وخسرنا فى كل حوطة . ولم يكن بهمنا هذا فى كثير او قليل . لقد كنا ننعم بتبادل الحديث . اما ما عدا ذلك فلا بهم » .

« وماذا عن والديها ؟ » .

« لقد خيل اليهما أننا اشبه بصدقين قديمين » . ووالدها ميجور جينرال . وهو مريض بالنقرس .

« أرجو لك أن تسعد بصدافتك الجديدة » .

« وهذا ما أرجوه لنفسى . من يدري مدى ما ستنهى اليه هذه العلاقة ؟ »

مهما يكن من امر ، فسيتكرر لقاءنا فى الأسبوع القادم .

وقفنا راجعين الى الفندق حيث وجدنا أن ميرفين قد غادره ولم يترك لنا ما ينبىء عن وجهته . وبعد أن اغتسلنا وأبدلنا ثيابنا تخرجنا ودعانا بيتر لتناول وجبة صينية احتفالاً بحظه السعيد ، ثم توجهنا الى السينما ، ومنها عدنا الى الفندق حيث وجدنا أن ميرفين لم يعد بعد . وآوينا الى فراشنا ، واستلقيت استعرض أحداث يومى ، وقد احتلت مسرورى مكانا كبيرا . وبعد قليل وصل الى مسمعى وقع خطوات ميرفين فناديتة اسأله عن الساعة ، وعلمت منه أنها الثالثة صباحا . وقد لاحظت أن حالته غير طبيعية ، ولم أستطع أن اتبين ما اذا كان ثملا من عدمه الا بعد أن خلع حذاءه وطوحه ثم استلقى على فراشه بكامل هندامه .

وكانت دروس مس وبى بعد الظهر . والساعات التى تقضيها معها اجمل ساعات اليوم . وكنا قد تقدمنا كثيرا فى تعلم اللعبة اليابانية ، بفضل ما اتبعته معنا من أسلوب عملى فى اجبارنا على تبادل الحديث معها .

واقبل علينا البريجادير ذات يوم يعتذر عن تغييبها لمرضاها . وترقبنا حضورها فى اليوم التالى ولكنها لم تحضر .. وبدانا نفتقدها . ثم طال غيابها . وفكرت فى ان ارسل اليها باقة من الزهور . وشعرت بهدوء نسبى عندما نفذت هذه الفكرة . وادركت ان غيابها قد بدأ يثقل على ويقض مضجعى .. وقررت ان ازورها بالفندق فى اليوم التالى ، وكان يوم سبت ' وتوجهت لزيارتها بعد الظهر .

وانتظرت ببهو فندق المساء فى ريشما يؤذن لى بالزيارة .. وراودتنى شتى الفكر ، وكدت اتدل عن اتمام هذه الزيارة حسية ما قد يكون فيها من ازعاج لها . وانتهت فترة ترددى عندما اقبل الرسول يعلننى بان السيدة تدعونى لغرفتها رقم ٤٣ بالطابق الثانى . وقرعت باب غرفتها ، وسمعت صوت مس وبى يدعونى للدخول .

كانت غرفة فسيحة غالبة الرياش .. وكان الفراش ونيرا نظيفا انيقا . وبين وسائده واغطيته البيضاء كانت تجلس مس وبى وكأنها قطعة من قطع الفن الرائع جمالا وبهاء وحسنا . ساكنة تعلو وجهها الرقيق خضلات شعرها الأسود الشاحم ، وتندسل على كتفها محيطا بوجهها فتزيده حسنا على حسن وبهاء على بهاء . وفاضت نفسى بشعور أردت ان أصبه فى أذنيها ، لحننا حلوا اخاذا . بيد اننى وجدت نفسى أردد ما يردده الناس فى مثل هذه المناسبات تحية ومجاملة .. ثم اتخذت لنفسى مجلسا يبعد عن فراشها ببضعة باردات . ولما سألتها عما بها قالت :

- مجرد صداد خفيف .

- هل عرضت نفسك على طبيب ؟
 - أجل . ووصف لى الدواء اللازم .
 - ربما كان ذلك من أثر الشمس ؟
 - هل بعث بك البريجادير لتعنفنى على تخفى ؟
 - أجل . والجميع يفتقدونك .
 ثم ضحكك وابتسمت .
 - شكرا على الزهور .
 - لقد بعثنا بها للتحية والتقدير .
 - كم يسعدنى وأنا اليابانية أن يكون لى أصدقاء .
 - أن جنسيتك لا شأن لها بما لك من منزلة فى القلوب ؟
 - هل لك فى قدح من الشاي ؟
 وأمرت لى بقدح من الشاي . وتجادبنا أطراف الحديث عن
 اليابان وعن عادات اليابانيين وعن نياهم وأحوالهم ، وكانت تضحك
 بين الحين والآخر ، ضحكة حلوة رقيقة تزيدها فتنة وجيالا .
 ووجدت نفسى أباداها جذلها وسرورها ، لأننى كنت أحس فى أعماق
 نفسى بفيض من السعادة يغمرنى .
 وآثرت بعد انصرافى أن أقطع المسافة سيرا على الأقدام ، حتى
 يتسع لى المجال لأنعم بالتفكير فى تلك اللحظات السعيدة التى
 قضيتها معها .

- ٣ -

وعادوتنى آلام الدوسنطاريا . وكنت قد شعرت بمقدماتها منذ
 يومين . وبدلا من أن أتوجه الى المدرسة توجهت الى الطبيب الذى
 صارحتى بضرورة التوجه فوراً الى المستشفى لأن حالتى تستدعى
 ذلك .

وعدت الى الفندق فى احدى سيارات الاسعاف لأحمل حاجياتى
 وأترك مذكرة لبيتر ولتابعى باها دور . ثم توجهت الى المدرسة
 لمقابلة البريجادير الذى علمت منه عرضاً بأن مس وبى ستهتائف
 دروسها بعد ظهر اليوم نفسه .

وأسفت على تلك الظروف الصحية التى تضطرنى لدخول
المستشفى والتخلف عن متابعة حضور فصولها الدراسية . وكدت
اثور على نفسى وعلى آلامى . وعلى ضالة الانسان أمام تلك الجرائم
الحقيرة التى لا تكاد ترى بالعين المجردة ، وعلى ضعفه فى تكيف
حياته كما يحلو له .

وكانت المستشفى تبعد ستة أميال عن الميناء ، وتقع بالقرب
من ميدان السباق . وانخرطت فى مسلك الجناح الخاص بمرض
الدوسنطاريا . وأسرع الأطباء والمرضات فى إجراء الفحص الذى
يتبع فى مثل هذه الأحوال .

واضطجعت فى فراشى قلغا ساخطا لا يسفر لى فراد . فلم
تعد بى رغبة فى الرقاد أو العزلة بعد ان بدأت الحياة تتسم لى
وتتفتح وخشيت ان يطول مقامى وابتعادى عن حياتى التى بدأت
تضاحكنى بفضل مس وبنى . وكان معى بالفريفة ضابط يدعى
جربجورى ، دخل معى فى حديث طويل عن الحرب وعن اليابانيين .
ووجدتنى أذافع عنهم على خلاف عادتى . واشتد الجدل بينى وبين
جربجورى واحتدم النقاش . وكاد يسمنى بالخيانة لدفاعى عن
العدو واختلط الأمر عليه ، وظن فى دفاعى عنهم كبشر آدميين
انه دفاع عنهم كأعداء ومحاربين .

ولم ينته هذا الجدل العقيم الا بدخول الممرضة لسبرغور
حرارتى ونبضى . وقد دهشت لأنها وجهتهما مرتفعين . وأعلنتنى
بذلك وطالبتنى بعدم الاكثار من الكلام والحركة .

وخلدت الى الراحة والسكون ، ولكن فكرى لم يهدأ .
واندفعت مس وبنى لتحتل كل ناحية من نواحي تفكيرى . . وتبين
لى اننى لم أندفع فى مناقشتى مع الكابتن الا لانتى كنت أتمثل
فى خاطرى مس وبنى فأردت ان أذافع عنها فداعمته عن جنسها
كله ، وضقت ذرعا بكل ما كان يتحدث به الضابط عنهم . ووجدتنى
أستعيد كل لحظة قضيتها بجانبها وأتمثلها فى كل صورها ،
بالمدرسة وبالسوق وبقرعتها بالفندق ، وبكل شيء فيها . وكانت
فى كل صورة تبدو أروع من سابقتها وأبهى حسنا . ووجدتنى
أحدث نفسى قائلا :

- أو يمكن ان يتم الأمر بكلّ هذه السرعة ؟ . انك لا تعرف عنها شيئا . لا تعرف عنها شيئا على الإطلاق ترى اهو خيالك الذى يخلق لك كل هذا ويصوره ؟ .

ان خيالى لم يكن الا نارا مشتعلة اتت على كل منابت العقل والمنطق ، كما تأتى النار على الهشيم وتذرو رماده فى الهواء فيختفى فى فضاء العدم .

- ٤ -

وفى صباح اليوم التالى عادنى الطبيب ، وطماننى بأن حالتي لن يستغرق علاجها أكثر من عشرة ايام . وبدأ العلاج فعلا ، بأن أمر الممرضة باعطائى اول جرعة تحت اشرافه .

وشعرت بتحسن بعد قليل . تحسن قد يكون راجعا فى معظمه الى ارتفاع حالتي المعنوية ، بعد ان علمت ان علاجى لن يستغرق أكثر من عشرة ايام فقط . ونهضت وخرجت الى الشرفة ، واحتللت احد مقاعدها الكبيرة المريحة فى ركن ظليل . وجلست انعم بوحديتى فى تراخى الكسل الذى ازداد من تأثير حرارة الجو . وأغمضت عيني نفاذا من شدة الضوء . وبدأت اغفو بعد قليل مسندا راسي الى ظهر المقعد .

وايقظنى بهادور من غفوتي . وسررت اذ وجدته أمامى ساعيا ليرانى . وكان سرورى أكثر لما عرفت انه قد أتى بكل ما قد احتاجه بالمستشفى . ووقف يتأملنى قائلا :

- ما كان يجب على ان ادعك تتناول من الطعام مالا يلائم صحتك ؟ .

- لست مسئولا عن ذلك يا بهادور . أنها جرثومة خبيثة .
- كلا . انك انجليزى رقيق وطعام الهند لا يتلائم معك .

- اعدك . بأننى سأتابع ارشاداتك .

وقبل أن يمضى أخرج من جيبه ثلاث رسائل سلمها الى .
الاولى كانت نشرة طيران . والثانية رسالة من الاهل بالوطن .

أما الثالثة فكانت مذكورة من بيتر . وكان أهم ما ورد بها خاصا
بمس ويى !

- وليس من شك فى أن مس ويى المحبوبة ، قد ساءها غيابك
هنا أو قل عنها . واصارحك باننى بدأت اشعر بالفيرة .
واعادت قراءة هذه الفقرة غير مرة . أو يقول حقا ؟ أو يمكن
أن تلحظ غيابى وتعلق عليه ؟ . أم انها احدى دعايات بيتر ؟ . أو
تحسن هى حقا بالوحدة والاكتئاب لغيايى لشد ما أمنى النفس بأن
يصح ذلك !

ثم خطر لى فجأة أن اكتب لمس ويى . وعدت لأراجع نفسى
فى ذلك ، لما فى كتابة الرسائل من خطورة ومجازفة . ولكننى
كنت فى أمس الحاجة لأن اكتب اليها . ان امانى اسبوعا على
الأقل يجب ان اقضيه بالمستشفى . ولن اكتب لها أكثر من اننى
ضعيد بتحسّن صحتها واننى أسف على حرمانى من حضور فصولها
الدراسية واننى أرجو عند مغادرتى للمستشفى ، أن تسمح لها
ظروفها بتناول العشاء معى ، واننى سأظل دائما . . سأظل دائما
ماذا ؟ . سأكتب وسأنتظر الرد ولكن ما يكون .

وقمت بتحرير الخطاب وغلفته ، ثم وضعته على المنضدة بجوار
فراشى . ولاحظت اننى عدت لأفكر الرسالة أم لا ، فقد كنت مترددا
قيم مستقر على رأى .

وبينما كنت فى حيرة من امرى ، دخلت الممرضة فى نوبة
مرور . ولما اقتربت من فراشى وقع نظرها على الخطاب فسالتنى !
- أتريد أن تبعث به ؟ .

- لو سمحت - شكرا .

وبذلك قضت على حيرتى وقطعت على ترددى . وشعرت
بارتفاع حالتى المعنوية . ولكننى كنت فى أشد حالات الضيق
هن راديو الكاتش جريجورى الذى لا يحمد له صوت . ودخلنا
مرة أخرى فى مناقشة حامية الوطيس حول هذا الموضوع ، لم يضع
لها حدا الا دخول الممرضة قائلة :

- انتن كويين ، ضابط الطيران ، اليس كذلك ؟ .

- أجل .

- زيارة لك .

ثم فتحت الباب في نفس اللحظة التي كنت أفكر فيها أن
الزائر لابد وأن يكون بيتر ، وهي فرصة سائحة لكي أسأله
عن صحة ما ورد بخطابه بشأن مس وبي .
ولكنه لم يكن بيتر . . لقد كانت مس وبي لحما ودما ! .

- ٥ -

واقبلت تقول :
- أرجو ألا أكون قد أزعجتك .
وارتج على القول بديء ذي بدء ، وأخيرا قلت لها في فرح
الصبية الصفار :
- يا لله . . أتزعجيني ؟ . يا لها من مفاجأة .
ونهضت مسرعا من فراشي ، وارتدبت « الروب دي شامبر »
وخرجنا معا إلى اشرفه . واتخذنا لنا مقعدين في الظل ، ومكثت
برهة لا أدري كيف أبدا حديثي معها وأخيرا قلت لها :
- خبريني . كيف حال الدراسة ؟ .
- انهم جميعا في غاية الظرف معي .
- حتى فينوبك ؟ .
- لقد زابلته عصبته . كل شيء على ما يرام .
وراحت تسرد على مسامعي بعض ما كان يجري من نوادر
بينها وبين الضباط في الفصل . وكيف عرفت بمرضى من بيتر
ثم سكنت عن الكلام . وران علينا صمت كان أكثر تعبيرا من مدلول
الألفاظ المتبادلة . وأخيرا قلت لها :
- لقد بعثت اليك برسالة اليوم .
وهنا رايت الممرضة التي سلمتها الرسالة مقبلة ، فناديتها
وسالتها عنها ، وبعد أن أخرجتها من جيب معطفها سلمتها إلى
وهنا ، طلبت منى مس وبي أن اطلعها عليها ، قلت لها :
- لم يعد بك حاجة لذلك . بوسعى أن اصارحك بكل ماورد
فيها .

- أرجوك .
- ومدت لى يدها لتؤكد أصرارها .
- لقد قلت لك . ليس بالرسالة ما يستحق كل هذا .
- ولكننى أحب أن اطلع عليها كما حررت .
- كلا . فقد تجددين بها بعض السخف .
- ان الرسالة معنونة باسمى وأصبحت من حقى .
- ولكنها فى يدى الآن .
- سلمنى هذه الرسالة . انك احد تلاميذى . وعليك أن
تطيعنى .

- فليكن .
وسلمتها الرسالة بعد لى ففضت المظروف وشرعت فى
تلاوتها ، واستغرقت فى هذا وقتا طويلا . وبعد أن قرغت من
تلاوتها طوتها وأودعتها حقيبة يدها بكل عناية . فقلت لها :
- لقد شعرت بالحرج وأنت تطلعين على رسالتى التى حررتها
لك فى حضورى .

- انها رسالة رقيقة . واكثر منها رقة تفكيرك فى كتابتها .
- ولكنها لم تتضمن كل ما كنت أريد ان أبوح لك به .
- وماذا كنت تريد ان تبوح به لى ؟
وحدثنى بنظرة بادلتها بمثلها ، وتمضت لفة الكلام وتحدثت
العيون . ثم سمعتها تقول أخيرا :
- لَكُمْ انا سعيدة .

- قد يصح ذلك الى حد ما . الا اننى ألاحظ فى عينيك من
الأسى ما تجاهدين فى اخفائه .
- اذن فأسأعمل العيونات حتى لا تستطيع ان تنفذ الى
قرارة نفسى .

- وهل لديك اى مانع فى ان اطلع على قرارة نفسك ؟
- كلا ، الا اذا كنت لا تعنى ما تقول .
- سادعوك «سايشى» وهو اسم فيه الجمال وفيه الغموض»

أو قلنتصره الى « سابي » ، انه الآخر اسم جميل ، ولعله اخف
على الأذن من اسمك الحقيقي .

— ان اسمي الحقيقي هو هاناكو .

— الزهرة الفضة ! . . . ياله من اسم جميل الدلالة . ولكنني
أفضل ان ادعوك « سابي » .

ونهضت لأرافقها حتى باب الخروج . ووقفت انتظرو حتى
استقلت السيارة ، ثم قفلت راجعا الى قرقتي ، حيث وجدت
الكابتن ينظر الى شلرا ، لانه عرف السر في دفاعي عن اليابانيين .

الكتاب الثانى

الفصل الأول

- ١ -

تفادرت المستشفى بعد ظهر اليوم الذى حدد لى . وبينما كنت أرتقى درج الفندق ، التقيت بمس هاكسون ، فحينئذى مرجبة بى ، واستفسرت منى عن حالتى الصحية ، فشكرتها وطمانتها عليها . وقضيت ساعة فى القراءة بعد تناول الشاي . ونعمت بالهدوء والوحدة . ولاحظت اننى لم أعد اشعر بهذا الفراغ الذى كنت اشعر به من اسابيع مضت ، وسررتى ان يعود لى احساسى بكبانى وبما يحيط بى من حياة .

ونهضت فى الخامسة اتها لارتداء ثيابى . وما كدت انتهى من ذلك ، حتى أقبل بيتر متباطا كنبه وقاموسه قائلا :

- آه .. يسرنى ان اراك تنها لتدعونى للعشاء . لقد كنا نتوقع ذلك منك فقد اقتصدت كثيرا من المال اثناء اقامتك بالمستشفى .

- اننى ما زلت فى دور النقااة . وعليكم انتم ان ترفهوا عنى .
- ليس لدينا من النقود مثل ما لديك . اننا مقلسون . لفتا
اقتضت من ميرفين ، وميرفين اقترض من ماريو ، وماريو من البريجادير . لقد اتضح لنا ان البريجادير اشبه بكنز من الذهب .
اننا نعبده جميعا .

- وما هى آخر اخباركم ؟

وبدا يسرد على نوادر فينيوك ، وهو يعرف انها آخر ما كنت اوده
ان اسمعه . ثم تلاها بالحديث عن مس جاكسون وعن قلبها الذهبى
وتخفة روحها . وعلمت منه ان اسمها الاول هو ووزى ، وانها كانت
تعيش قبل الحرب فى رانجون ، التى عرفت منها حتى لا تقع فى

قبضة اليابانيين .. ولما وجدته مسترسلا في حديثه عن مس
جاكسون ، حاولت أن أغير مجرى الحديث بسؤاله عن مدى تقدمه
في تعلم اليابانية . وبدلا من أن أتلقى منه الإجابة التي كنت اتوق
اليها ، راح يحدثني عن القصة التي يزمع تأليفها عن الحرب العالمية
الثانية لتكون صنوا لقصة « كل شيء هادئ في الميدان الغربي »
عن الحرب العالمية الأولى . وترك لخياله العنان ليبنى قصورا على
الرمال . وأخيرا عاد الى عالم الحقيقة ليسألني :

- والآن : ماذا عن دعوتك لي للعشاء ؟ .

- ليس هناك دعوة للعشاء .

- ولكنك لن تذهب وتتركني .

- اهلا بك اذا صممت .

- لا تخف .. لقد كنت أمزح فقط .. فانا أعرف كل شيء .

- ما افنك تعرف شيئا .

- بل أعرف أنك ذاهب لمقابلة زهرتك الرقيقة هاناكو في

الساعة السادسة والنصف عند مدخل بهو التاج .

- واني لك هذه المعلومات ؟ .

- هي التي أخبرتنا بذلك في قاعة الدرس .

- لست اصدق شيئا من هذا القبيل ، لا يعقل ان تفعل ذلك .

- انها تحيطنا علما بكل شيء .

- كفك هذا .. ان ما تقوله غير مقبول عقلا .

- اذن فاليك الحقيقة .. ان الأمر كله من استنتاجي الخالص .

فأنت تعرف أنني أعد نفسي لأكون كاتباً قصصياً متخصصاً في
القصص البوليسية . ولقد لاحظت اليوم أن مس وبي تنطق السعادة
في كل ملامحها ، مما يدل على أنها مقبلة على موعد هام محبب إلى
نفسها . ثم حضرت إلى هنا لأجلك تنهياً للخروج ، الأمر الذي
حددت منه موعد السادسة والنصف وهو الوقت الذي تصل فيه
إلى التاج . أما عن تحديدي مكان اللقاء بالتاج ، فذلك لأنه المكان
الوحيد لمثل هذا اللقاء في بومباي .

- أوه .. يا لك من ماهر . لقد أفرغتني في أول الأمر .



- اذهب ولا تخش شيئا . واذا ما افتقدك الزملاء فساخبرهم
بانك ذهبت الى السينما فى صحة روزى . وستؤمن روزى على
قولى هذا .. هيا انطلق .. وانى لأرجو لك وقتا طيبا .
ووصلت الى التاج قبل الموعد المعين بعشر دقائق . ووقفت
أقطع الوقت بتصفح بعض الكتب والمجلات المودعة بالمدخل . وبينما
شغلت بتصفح مؤلف استرعى انتباهى بعنوانه واهدائه ، شعرت
بمن يقترب منى قائلا باليابانية :

- كيف حالك ؟

فاجبتها باليابانية :

- بخير ما دمت ..

وكانت هذه العبارة هى كل ما استطعت أن أذكره بعد ثلاثة
أسابيع قضيتها بالمستشفى .

وعادت سابى تسألنى بالانجليزية عن صحتى ، فأكدت لها اننى
بخير . وكانت سعيدة مرحة تنطق الانجليزية فى لكنة مثيرة وتطليق
منى أن أصحح لها أخطاء نطقها .

وارتقينا الدرج العريض الضخم ، وجلسنا الى منضدة بجوان
نافذة تطل على الخليج .

ولما أقبل الساقى رفضت أن تتناول شيئا . واصرت على
الرفض بالرغم من الحاحى . واضطرت أخيرا الا أأكل عليها .
واستأذنتنى فى أن تدخن . فأسرعت بالاعتذار اليها ، وحاولت
أن أقدم لها احدى سجائرى . ولكنها كانت قد أسرعت بدورها
وأخرجت من حقيبتها صندوقا فضيا أنيقا ، تقش عليه الحرفان
ه . ت . وقدمت لى لفافة تبغ منه . وكنت أعرف ان حرف ه
يعنى هاناكو . ولكنها لم تكن قد صرحت لى بشئ عن دلالة حرف
ت . وقد حملنى هذا لأول مرة على أن أفكر فى ماضيها . غير اننى
لم أكن فى عجلة من أمرى لاستفسر منها عن شئ منه .

وشرعت أتأمل وجهها عن كثب . وجلت يعنى فى كل لحظة من
لمحاته لعلى أجد به شيئا يعيها . ولكننى لم أجد الا جمالا فى
أثره جمال ، ومحاسن رائعة يطفى بعضها على بعض . وانطبع
الوجه العاجى الشرقى الملامح فى ذهنى ، وملاّت صورته كل

بخيالى . واستطلعت أن انفذ من عينها الى أعماق نفسها واسبر
قورها ، لأطفو على السطح وانتقا مما يعمل فى هذه النفس من
لواعج الشقاء وطفرات السعادة التى تضطرب بها روح امرأة قد
موت بخضم الحياة . وفضحنى عينائى ، وسمعتها تقول لى :

- ماذا تريد أن تعرف ؟

- اعرف ماذا ؟

- ان عدم اتقانى اللغة الانجليزية يضعف من قوة تعبيرى ..
كنت اريد أن أقول ، انك تحدجنى بعينيك وكأنك تريد أن تنفذ
الى أعماق نفسى .

- تلك هى الحقيقة .

- وماذا تريد أن تعرف ؟

- كل ما اعرفه اننى بدأت اميل اليك ..

- هكذا ؟ . هل أنت واثق مما تقول ؟

- كل الثقة .

وبعد ان اتيت على كاسى ، وانتهت هى من تدخين ثلاث لفافات
من التبغ ، نهضنا الى قاعة الطعام لتناول اعياء . وكانت القاعة
تعج بعلبة القوم من الهنود ونسائهم ، وبالضباط وغيرهم من النزلاء
وعلى انغام الموسيقى وتمايل الراقصون ، ودبت الحياة فى القاعة
ونسى المجتمعون الحرب وما نحمله معها من آلام .

قالت سابى :

- هذا اول عشاء لنا معا .

- لقد تناولنا الشاي فى حجرتك ..

- اذن فهذا ثانى اجتماع لنا على انفراد .

- كلا . انه الرابع .

- او يتعين على أن اناديك بمستر كوين ؟

- نادنى بما تشائين . الامر عئدى سواء .

- ولكننى افضل أن اناديك بميشيل ..

- فليكن . مهما يكن من أمر الاسم الذى تنادينى به ، فكل

الاسماء تجرى على لسانك لحنا جميلا .

- رقة تعبير ما تقول ؟ . ام تراه مجاملة الفاظ ؟

- لا هذا ولا ذاك ، بل هى حقيقة شعورى وأنه ليخل الر. اننى
عرفتك من سنين .
- ان تألف النعوس امر يقع تلقائيا دون جهه و اعنات .
- اجل . انها دفعة الأرواح تلتقى دوز تصنع و رباء .
وفى الفارى الذى عدنا به ، وضعت يدها بين يدي . وكنت
أضغط عليها برفق ، لأنها كانت رقيقة كطير صغير هس ضئيل .
سالتنى ونحن فى طريقنا :
- هل تعجبك بومباى فى الليل ؟
- فى بعض الأحيان .
- هل هى أجمل من لندن ؟
- كان آخر عهدى بلندن فى ليالى الاضلام .
- لقد شهدت ذلك وعشت هذه التجربة .
- لا أستطيع ان اتصور انك قادمة من لندن .
- لقد أحببت لندن والحياة فيها . لقد كنت جد سعيدة عنالك
لندن بلد لها طابعها الخاص . ان الانسان عندما يبلغ قمة السعادة
حرى به ان يموت قبل ان يعود ليرى الشفاء .
- وهل أنت قصة الآن ؟
- كلا - انا جد سعيدة .
- وستظلين سعيدة .
- كلا . ليس هذا من شيمة الحياة . وليس فى طبع ليالها
الأمان . يكفى اننى سعيدة . وهذا هو حصرى الذى يجب ان اعم
به . دع المستقبل لله ، ولا تشغل بالك بما هو آت .
وكنا قد وصلنا الى الفندق الذى تنزل به ، فصرنا الفارى
ودخلنا معا الى بهو الفندق ، ثم الى المصعد ، ثم الى غرفتها .
وخرجت الى الشرفة أتأمل السماء حيناً ، وأنظر الى الشارع
حيناً آخر ، ولم يكن ليعيننى ما فى السماء من نجوم ، او ما فى
الطريق من اضاءة وحركة ، لأننى كنت أقلب نظرى فى فضاء
نعيمى ، وأسرح الطرف فيما أنا فيه من هناء .
ثم سمعتها تنادبنى . والتفت لاراها عند باب الشرفة ، وقد
وقفت كتمثال من تماثيل آلهة الجمال لا تتحركه . وكانت ترتدى

توبيا يابانيا فضفاضا متعدد الألوان . وقفت تبسم وقد تدلى
شعرها الأسود الفاحم فكان كاطار رافع لوجهها العاجي الجميل .
ووقفت أتأملها دون ان اقول شيئا ، فقد كنت أريد ان تنطبع هذه
الصورة فى ذهنى كما هى ، رائعة جميلة تخلد ذكرى لحظة من
اجمل لحظات حياتى . ولما بدأت تتحرك سألتها ان تظل فى
مكانها ، ثم اندفعت اليها أطوقها بذرعى وأكاد احتويها بين ضلوعى
وطبعت على شفتيها قبلة اودعتها كل مشاعرى وحنائى .

الفصل الثانى .

- ١ -

عندما عدت الى الفندق ، وجدت خطابا من مستر هيدلى
يدعونى فيه للعشاء . فاتصلت به تليفونيا لاعتذر عن قبول الدعوة
ولسكنه رفض ان يقبل اعتذارى وأصر على دعوتى مع من اكون
مرتبطا بموعد معه . فقلت له موضحا :

- انها معلمتى اليابانية .
- ان ذلك لا يغير الوضع . اليست بشرا مثلى ومثلك ؟ .
- فليكن .
- اذن الى الثامنة مساء .
- وصعدت الى الطابق الأعلى لأجد ان بيتر لم يزل نائما .
- فأيقظته حيث كانت الساعة قد جاوزت الثامنة صباحا ، وفتح
عينيه ليسألنى :

- هل قضيت وقتا طيبا فى مشاهدة الفيلم مع روزى ؟ .
- لقد كان فيلما رائعا .
- يبدو من خلجات وجهك انك لم تزل واقعا تحت تأثيره .
- وشغلت نفسى بازاحة الغطاء عن فراشى حتى يبدو وكأشى
قضيت الليل فيه . ثم بدأت استعد لتغيير ثيابى . . وكان باهادون
قد حضر فعاونتى فى ذلك . ولاحظت انه يتأملنى خلسة من طرفه
حينه . ثم سألنى أخيرا :

• اذهب انت الى السوق ؟ •

• اجل .. ولكننى افضل ان اذهب بمفردى •

• ولكنك ستجهد نفسك ، وانت لم تزل بعد فى دور النقاهة •

• قد يساعدنى هذا على استعادة قوائى •

• بوسعك ان تعتمد على باهادر •

• فى يوم آخر •

• انت حرا •

وهبطت الى الطابق الاول لتناول طعام الافطار ، وكانت روحى
المعنوية مرتفعة جدا . وخيل الى ان الوقت يمر بطيئا متاقلا .
وكنت احدث النظر فى ساعتى حتى ظننت ان عقاربها لا تنحرك •
التاسعة الا الربع • ثم التاسعة • وبعد فترة حسبتها اشبه
بالدهر كله صارت التاسعة والربع • وكنت قلقا لا يستقر لى
قراو ••

وحاولت ان اقطع الوقت بالقراءة ، ولكننى لم افهم شيئا
مما كنت اقرا • وما ان بلغت الساعة العاشرة الا الربع حتى
كنت عند مخازن الجيش والبحرية فى تمام العاشرة والنصف •
ورأيتها مقبلة امامى تمشى على استحياء • فقد حرصت هى
الآخرى على الا تتخلف عن الموعد • وتقابلنا والتقت العيون لانخفى
عينا مما يعتمل فى النفوس مرشوق وحنين • وتصادفنا ، وكادت
تدوب حيننا فى دفعة اللقاء فقلت لها :

• انك لا تحاولين اخفا مشاعرك • ان الناس •••

فقاطعتنى قائلة :

• لا عليك من الناس • ولا يعينى فى كثير ولا فى قليل ان
يعرفوا ما بيننا •

وكانت من فرط سعادتها لا تكاد تستقر بقدميها على الأرض
قلت لها :

• ان استهتارك قد يكلفك اكثر من عملك •

• ساحيط البريجادير علما بكل شيء •

• معنى هذا انك سترحلين عنا •

اذن فلن اخبره بشيء • انتى طوع امرك • هل يرضيك ان

اليس بىوس الجد ؟ فليكن لك ما تريد اذن •

وجهدت نفسها حتى اكتسب وجهها بظابع حزين ، لم ينفع
مع ما كان يشع من عينيها من بريق السعادة والهناء .
- هيا بنا . ماذا تريدان ابتاعه ؟

- كل شيء . الدنيا بأسرها .

ودلفنا الى المخازن نتجول بين اقسامها . وبينما كنا نبتاع
بعض الحلوى ، سمعنا تقول اننا لن نأكلها الا فى المساء .
فتذكرت دعوة هيدلى واحطتها علما بها . وقد ظننت بادىء ذى بفتة
ان الدعوة موجهة لى وحدى . فلما اخبرتها بأن الدعوة موجهة
لكليتنا كادت تطير فرحا . انها كالاطفال ، تفرح لكل شيء ، ومن
يدرى فقد تغضب ايضا من اقل شيء .

ومررنا بأحد المقاهى ، واقترحت عليها ان ندخل لتناول
قدحين من القهوة الثلجة . وكان المقهى مزدحما ، وجلس كل منا
تجاه الآخر يرتشف قدحه حيناً ويتأمل الآخر حيناً آخر . ولا حظت
ان الحاضرين يحدقون النظر فى وجه سالى ، فاذا ما تصادف والتقت
عيونهم بعينى اشاحوا بوجوههم عنى تفاديا من نظراتى . . ولم
اكن أدري ما اذا كانت نظراتهم لها اعجابا بجمالها ام استغراب لانها
يابانية . ولم تلحظ سالى شيئا من ذلك . لانها كانت غرقى فى
لجة من سعادتها ، لا ترى شيئا الا ذاتها . ولا تعنى بشيء غير ان
تأملنى ، وكأننا نجلس فى المقهى بمفردنا . ولطالما تآقت نفسى ان
اضمها بين ذراعى وامطر عينيها قبلات ملئت غراما واتقدت
هياما .

وبعد ان فرغنا من احتساء قهوتنا ، قمنا بشراء بعض الحاجيات
وابتعت لها منديلا حريريا تغطى به رأسها . وامرت باوسال بعض
الزهور لغرفتها . وابتاعت سالى لى ساعة فضية ، عارضت كثيرا
فى قبولها ، فلما اصرت تقبلتها شاكرة .

وغادرنا المخازن يدا فى يد ، لا تكاد اقدامنا تحملنا من فرط
سعادتنا . كنت سعيدا الى حد لم اعلمه من قبل . بل وبلغ من
شمورى بسعادتى حدا كنت أخشى معه ما عرف عن غدر الأيام
واللبالى بمن ييلفون أعلى ذرى السعادة ، فتتهبط بهم من حالق
النعم الى حضيض الشقاء ، دون أن ترفق بهم .

وتساءلت فيما بينى وبين نفسى « ترى ماذا سيكون من امرنا ؟ »
وكانى بسابى وقد تواردت خواطرها مع خواطرى فسالتنى فجأة .
- ميشيل . ترى كيف تكون الجنسية التى يعنى الناس بها
انفسهم ؟ .

- لماذا ؟ .

- لقد سمعت الناس تردد هذا التعبير .

فحاولت ان افسر لها ذلك قائلا :

- فلنفرص انك تجلسين فى غرفة ما وبيدك زجاجة من الجن
والى جانبك اتير قلبك ، وخيل اليك بهذا انك قد بلغت اعلى مراحل
السعادة ، وطوال هذه الجلسة توجد قبلة زمنية بأحد الأدرج .
هذا هو النعيم الزائل او الخادع او ظنسمه كما تشائين .

- وهل تظن ان هناك قبلة زمنية فى صندوق حياتنا ؟ .

- بل رانى لأسمع صوت دقائقها .

- قد يكون ما تقول صحيحا ، ولكننى أصم اذنى عنه ، حتى

لا افسد به هنائى .

وكننا قد وصلنا فى هذه اللحظة امام بنك الامبراطورية الشرقى
فقالت لى :

- سادخل لصرف « شيك » . ارجوك ان تأنى معى ، حتى

لا يرانى المدير .

- ولماذا ؟ هل هناك عجز فى حسابك ؟ .

- اوه كلا . ان رصيدى كبير .

- اذن ، فما عسى ان يكون السبب ؟ .

- لا شيء . . ساوضح لك الامر فيما بعد .

وانتهت سابى الى الصراف وحررت الشيك . ورأيت احد

الموظفين الهنود يتسم فى وجهها قائلا :

- هل تودين مقابلة مستر سكايف ؟ .

- ليس الآن اننى فى عجلة من امرى ؟ .

- انه موجود بمكتبه .

- كلا . شكرا .

ولما انصرفنا من البنك سالتها :

٥ - أخبريني من يكون مستر سكايڤ هذا ؟

٦ - هو رجل يشملنى برعايته

٧ - ماذا تعنين ؟

٨ - انه صديق حميم للوصى على . اننى لم اخبرك بعد بامى هذا الوصى . لدى الكثير مما يجب أن اخبرك به . وكل ما فى الامن اننى لا اعرف من اين ابدا . واليك مثلا سبب وجودى بانجلترا . وهو فى اعتقادى اول ما يجب ان احدثك عنه . فقد اضطر والدنى أن يصحبنا ، والدتى وأنا ، فى رحلة الى اوربا . وقد حدث هذا عقب سوء تفاهم وقع بينى من ناحية وبين والدتى ووالدتى من ناحية اخرى ، بشأن رفضى الزواج من رجل اختاراه لى . وقد رحبت بفرصة السفر لعلها تثيننى عن عزمى . ولكننى ازددت عنادا وأصرارا على الرفض ، بل ورفضت العودة الى اليابان . وهددنى والدنى بأنه لن يمنحنى نقودا ما ولن يكون مسئولا عنى . وحتى اقنعه باننى جادة فى عزمى حصلت على عمل .

٩ - كيف تيسر لك هذا ؟

١٠ - يا صديقى العزيز ، او حقا تريد ان تسمع القصة بحدافيرها ؟

١١ - أجل لو تكرمت .

١٢ - يهتمون فى اليابان بتنسيق الزهور . ولقنت هذا الفن الجميل واتقنته ، لانى كنت راغبة فيه وكنت اشعر بميل شديد للزهور وتاملها وتنسيقها . وبينما كنت اسير بشارع ريجنت وقع بصرى على حانوت لبيع الزهور ، فدخلت وقلت للمدير أرجوك ان تسمح لى بتنسيق زهورك . . ولما لم يفهمنى شرعت فعلا فى تنسيق باقة أعجب بها حتى انه دعا مساعده ليعرضها عليه مشيا على ذوقى وبراعتى . وعرض على فعلا ان اعمل معه . ولما كان والدنى قد هددنى بما هددنى به ، قبلت . . وهكذا طابت لى الحياة فى انجلترا .

١٣ - فسألته :

١٤ - مع وصيك ؟

- أجل لأنه وجب طيب القلب رقيق الشعور . وقد وهد
والدتي هو وزوجته أن يسهرا على راحتي ورعاية أمري .
- ترى من عساه يكون ؟
- المستر ويلبراهام دورستون .
- اللورد دورستون ، اليس كذلك ؟
- أجل ، هو بعينه . فقد كان صديقا لوالدي قبل قيام الحرب
وكان هذا هو السبب في أننا كنا نقيم في قصره . وما أن لاحت
بواد الحرب في الأفق ، حتى حاول أن يعيدني إلى وطني . فلما
أمضيت ذلك ، قبل أن يستظلني بوصايته . وقامت الحرب
وتكفل بي وتمهد لأولى الأمر بأنه مسئول عني ، وهكذا سمح لي
- ألم تأسف على عدم عودتك لليابان ؟
- كلا . لأنني لا أحب أن أتزوج من الرجل الذي يفرض على
وانتي لسعيدة بحياتي هذه .
بالإقامة في قصره .
- ولكننا في حالة حرب . وانت بعيدة عن وطنك في بلاد
وبين أناس يحاربون قومك .
فهزت رأسها نفيا ، وفاض وجهها بشرا ، لتنهى هذا الحديث
وتعود بنا إلى سماء سعادتنا .

- ٢ -

وتوجهت إلى المدرسة بعد الظهر لأحضر فصلها الدراسي مع
انه لم تكن بي حاجة لذلك بناء على الشهادة الطبية التي منحت لي
بالتغيب أسبوعا حتى أسترد صحتي . ولكنني كنت أريد أن أراها
دائما أمامي أو بصبرة أخرى كنت لا أريد أن يراها زملائي في
غير وجودي .
واقبلت سابي تخطر في خفة الطير الصغير . وحاولت أن
تلتقي عيناها بعيني . ثم ألت إلى بنظرة خاطفة عابرة ، أحمرت
وجنتاها بعدها بدماء الخجل والانفعال . وبدأت في توجيه الأسئلة
إلى زملائي ، فلما حل دوري سألتني :



- هل أنت ممن يرون اليهود ؟
فأجبتها :

- هذا يتوقف على ماهية هذه اليهود .

- هل تحافظ على وعدك لامرأة ؟

- وهذا يتوقف على المرأة التي ابذل لها وعدي .

وكانت تحاول ان تخفي ابتسامتها . ولاحظت انها اصبحت
محبوبة من جميع زملائي وان ساعتها الدراسية كانت ساعة نفيض
بالمرح ، خفيفة الظل تمضي سراعا بدقائقها . وكنت لا افترأ اردد
يبنى وبين نفسي : «سأبى يا طفلى العزيرة الجميلة» .

ولكنها لم تكن طفلة ، بل كانت امرأة كاملة النمو بكل . فى
هذه الكلمة من معانى الانوثة والحياة بقوامها اللدن الرقيق .
وعينها البريشتين براءة الاطفال . . اما جمانها الروحي فقد كشفت
لزملائي الضباط عن حبققة امرها . ولذلك سمعت احدهم
يستفسر منها :

- كم كان سنك عندما وقع حادث الزلزال الكبير ؟

وليس من شك فى انها فهمت من هذا السؤال انه وسيلة يريد
بها السائل ان يصل الى معرفة سننها . ولكنها لم تأبه لذلك
فأجابه فوراً :

- كنت فى السابعة من عمري .

وعرفنا من هذه الاجابة انها فى السادسة والعشرين من سن
حياتها ، الا ان الأعمار لا تحسب بعدد السنين . ان سائى سواء
كانت فى السابعة عشرة من عمرها ، أو فى السابعة ، أو فى
السبعين ، فهى سائى ، الزهرة الفضة الجميلة .

ووقفت بالنافذة أتأملها عند انصرافها من المدرسة ، وسيت
نفسى حتى سمعت بيتر يهمس فى اذنى
- انك تمر بحالة حب .

- من اليسير أن يخلق المرء مثل الذى تقول .

- لقد كنتما تتبادلان عبارات الغزل فى الفصل .

- هراء .

- ولكن هذه هي الحقيقة . ان علاقتكما لم تعد تخفى على
أحد ..

- هذا ما تزعمه انت .

- ميشيل . انها تكشف عن ذات نفسها . عليكما بالتزام
جانب الحذر . كن عاقلا . حدثها بذلك . أرجوك ان تستمع الى
نصحي . انك لا تستطيع ان ترى ما يراه غيرك .
- ساحاول .

وعدنا معا الى الفندق الذى تقيم به ووجدت باهادور فى
غرفتنا . كما وجدته قد اعد لى ملابس المساء . وقمت باستبدال
ثيابى . ووجدت ان الساعة لم تتجاوز السادسة والنصف بعد .
ووددت لو كانت السابعة والنصف لأننا تواعدنا فى تمام الثامنة
الا الربع ، حتى نكون عند مستر هيرلى فى الثامنة . وجلست
أعجل مرور الوقت . ولكننى لم أستطع الانتصار عليه ، فهبطت
الى الطابق الارضى واتصلت بها تليفونيا :

- ماذا تفعلين ؟

- اعد نفسى لانتظارك .

- وهل سيتفرق الوقت منك كل هذا ؟

- انى فى انتظارك الآن . فليس احب الى قلبى من ان اكون
معك . دائما معك . هيا لا تتأخر .

وانطلقت مسرعا اليها . فقد كنت انا الآخر احب ان اكون معها
فى كل ساعة من ساعات حياتى . هذه الساعات السعيدة التى
اتيحت لى عندما بلغ احساسى ذروته بفراغ حياتى ، تبدو فى
عينى ثمينة عزيزة تقدر قيمتها بالدقائق والثوانى . فالمساء هو
الماء . ولكنه فى الصحراء الجرداء القاحلة ، غيره بجوار الأنهار
الجارية .

ووصلت لأجدها فى ثوبها الفضفاض لم تستكمل زينتها بعد
فقلت لها :

- ألم تفرغى من ارتداء ثيابك بعد ؟

فقال لى :

— اننى اناثق لأبدو جديرة بك —
— انك جديرة بى فى اى وضع كان —

واقتربت منها وأخذتها بين ذراعى وطبعت على شفتيها
الرفيقتين قبلة عابرة ، ثم أبعدها عنى على مدى ذراعى ، وامسكت
بكتفيها وبدأت أناملها معجبا فاحصا سعيدا بها . وكما كنت أفعل
دائما ، كنت حريصا على أن تنطبع صور هذه اللحظات فى ذهنى
حتى لا تفيب عنى أبدا .
وما أن وافت الساعة الثامنة الا الربع ، حتى كنا فى طريقنا
الى مستر هيدلى . وبلغنا محل سكنه المجاور لكتبه ، والفيناه فى
انتظارنا ، حيث قابلنا مرحبا مادا ذراعيه لكل منا . ثم راح يتأمل
صاى مطريا جمالها واناقتها فقدمتها اليه قائلا :

— حس وى .
وشعرت بان صاى فى حرج من امرها وبأنها تريد أن تقول
شيئا . وأخيرا سمعتها تقول :

— ولكننى يابانية بالرغم من ظاهر الاسم الصينى .
فقال لها مستر هيدلى هاشا باشا ؟
— لقد حزرت ذلك . اننى مفرم باليابان . لقد عشت هناك
ودحا من الزمن ولى بها عدة اصدقاء . لم يكن بك حاجة لتخفى
اسمك اليابانى الحقيقى . . اننى سعيد لأنك لبيت دعوى . . لگم
كنت أود أن اكون طالبا فى مدرستك أتعلم معك اليابانية من
جديدة .

وجلسنا الى مائدة العشاء ، وادار مستر هيدلى دفة الحديث
وكان كله حول اليابان والسياسة . وكان يوجه لسابى اسئلة صريحة
الى الضميم . وكانت تجيبه هى الأخرى بما يمليه عليها شعورها
بوجدانها . وراح الرجل يعرض وجهة نظره عما فى العالم من
كبروت وعن مثيرى هذه الحروب وعن تلك المجازر البشرية التى
تلذّب بارواح الملايين من البشر . وانتقل بعد ذلك الى التفرقة
بين الأجناس وما تعانيه الشعوب المتخلفة من بؤس وحرمان وشقاء
وانتقل من حديث السياسة فجأة الى ميني صاى وما يندو

القيهما من ذكاء لأنه لاحظ أنها تبسج حديثه قى وعى وأدراك
لما يقول .

وفى طريق عودتنا ، كان مستر هيدلى هو محور حديثنا
فقلت لى :

- ألم تبين شيئا من حديثه ؟ .

- لقد تبينت أشياء كثيرة . ولكننى لا اعرف أى شيء

تعين ؟ .

- ألم تفهم ما كان يعنيه بقوله فى مرارة « على المسره أن

يعيش » .

- أجل . انه عيش أقرب الى الموت منه الى الحياة .

- هذا هو بيت القصيد . يمكن للانسان فى بعض الأحيان

أن يكون الحى الميت . وارى انه من الخير لئلا هذا الانسان أن

يموت فعلا ، أولى له من أن يتعذب ويحيا حياة هى والعدم سواء .

- أخبرينى . لماذا تحدثين دائما عن العذاب ؟ لماذا تلازم

هذه الصورة دائما مخيلتك ؟ .

ولكنها لم تعقب بشيء . وازدادت التصاقا بى ، وكأنها تريد

بذلك أن تشعر بالطمأنينة والأمان . ولقد خيل الى أيضا أنها ترى

أمامها وحشا كاسرا تريد الاحتواء منه بى ، فقلت لها :

- تلك هى ناحية الطفولة عندك . انك لم تتخلصى أبدا من

هذا الخاطر الذى يلزمك ويلزم خيال الأطفال خاطر المجهول

الذى يشير الرعب القابع فى ركن الغرفة فى الظلام .

ومشينا على مهل ذراعا فى ذراع . وكان الطقس حارا .

والسما صافية ترهب بنجومها .

وبدأت اتساءل فجأة :

- من منا هو الطفل ؟ أهى سبى أم أنا ؟ أهى سبى التى

لمست اطراف الحقيقة ، أم أنا الطفل السادر فى غيه وفى أوهامه

ويدعى القدرة على حمايتها ، حتى اذا ما وجد الجدار انهار وتكشفت

له حقيقة نفسه ؟ .

الفصل الثالث

- ١ -

وبعد اسبوع التقيت بمستر هيدلى صدفة فبادرته قائلا :
- كنت أريد أن استفسر منك عن رياضة اليوجا ، ومن
يمارسونها .. اذ اننى أرغب فى أن الم بشئ عن نواحى الهند
الروحية .
فضحك قائلا :

- عندما تصعد الى السماء ، ستنتهى جانبا بسانت بيتر عند
بابها وتقول له : استمع الى يا سانت بيتر ، هلا انباتنى بكل
ما تعرفه عن الملائكة ؟ وكأنك تريد منه ان يحيطك بكل شئ فى
بضع كلمات قصار .
فقلت له :

- ولكننى يجب ان أعرف شيئا عن اليوجا . ان قومن
يسألوننى عنها عندما اعود الى الوطن . يودى لو قابلت واحدا
ممن يمارسونها .

- اعتقد اننى استطيع ان ادبر لك هذا الأمر .
- كنت واثقا من انك تقدر على ذلك .

- وان كنت لم يسبق لى ان قابلت يوجيا . ولكننى سارشدك
لأن يعينك على ماتريده . اذهب لمقابلة سكايڤ .. بينك الامبراطورية
الشرقى . وهو خير من يرشدك الى ما تبغى . وقل له انك مرسل
من لدنى ..

وسكايڤ هذا هو الذى تحدثت الى سابى بشأنه ، وقالت لى
انه بمثابة ولى أمرها فى الهند . فلما التقيت بسابى بعد ذلك ..
صالتها ان تذهب بى الى مستر سكايڤ ، وصارحتها بالسبب فى
رغبتي هذه .

- كلا يا حبيبي . لست أوافق على أن أذهب بك اليه .
- لماذا ؟ هل تجدينى غير أهل لهذا ؟
- ليس الأمر كما فهمته .

- لن يكون بك حاجة لأن تصارحيه بشيء عنا . يمكنك أن
تقدمينى اليه على اننى أحسد طلبتك . طالب يريد أن يستطلع
أسرار الشرق ويلم بنواحيه .

- أرجوك ، لست بى رغبة لاصطحابك .

- ولكن لماذا ؟

- لأننى لا أميل اليه . انه شخص غريب الأطوار . ولا أريد
أن أقابله أو أن أراه .

- ما دام الأمر كذلك ، هل لديك أى مانع فى أن أتوجه لمقابلته
وحدى ؟

- بكل تأكيد لا . لك ان تذهب متى شئت .

وتوجهت لمقابلة مستر سكايف فى اليوم التالى . وانتظرت
الأذن لى بالدخول ما يقرب من عشر دقائق . ووجدته جالسا الى
مكتب فخم أنيق . وكانت الغرفة فاخرة الأثاث نظيفة . وبها
سكرتيرة شغلت بالكتابة على الآلة الكاتبة ، مولية ظهرها لنا .

وعرفت فى سكايف الرجل الذى رأيته فى صبة سابى
بنادى اليخت . وأخبرته بأننى موفد من لدن مستر هيدلى .
واننى قصدته مدفوعا برغبتي فى التعرف على احوال البوجيين
« والفقراء والهنود » واننى أطمع فى مساعدته .

وأبدى الرجل استعداده لمعاونتى بكل سرور . ومال فى
مقعده الى الورا ، وراح يتأمل سقف الغرفة . وتساءلت عما اذا
كانت هذه الحالة من مقتضيات تفكير من يمارسون البوجا . ثم
عاد ليهبط من حالى سمائه ولينبئ بأنه سيدبر لى الأمر . وأنه
سيسأل المستر مونشى ليرافقنى وسيكون خير دليل لى . وأصر
بعد ذلك على دعوتى للعشاء .

وتوجهت الى فندق الماي فى لاهيط سابى علما بما كان

ويقبولي دعوة مستر سكاياف للعشاء • وكانت هذه أول مرة بعد الخروج من المستشفى أتناول فيها عشاء في غير صحبة سابي • ورحبت بهذا التغيير كتجربة أولى لتغيير ما ألفناه • وقد قالت لي بعد أن استمعت الى :

- ترى ما هي اليوجا ؟

- سأحكى لك عنها بعد عودتي • الا اذا كنت ترغبين في الذهاب معي وترين بنفسك • ولكنك ستقابل سكاياف • - لست أدري لماذا لا تميلين اليه •

- لأنني لا أفهمه • انه شخص غريب الأطوار • وقد يكون مرد هذا الى حبه لليوجا • اياك وأن تنغمس فيها أنت الآخر مثله • يقع منزل سكاياف على تل مالا بار في الطرف الثاني من الخليج بأقصى ضواحي المدينة • ورأيت مستر سكاياف في إحدى نوافذ بيته • ولاحظت انه رآني ولكنه لم يحضر لمقابلتي • وفتح الباب أحد الخدم الذي أعلن حضوري • وبعد دقيقة ظهر مستر سكاياف وتقدمني الى غرفة الجلوس حيث قدمني الى مستر مونشي وقدمه الى • وشهد مستر مونشي على يدي مرحبا معلنا اغتباطه بالترقى بي •

وانخذ كل منا مجلسه • وأمر لنا مستر سكاياف بالشراب • وشرعنا نحسب الويسكي ، الا مونشي الذي فضل عصير الليمون • ثم سمعت سكاياف يوجه الى الحديث قائلا بعد أن أشعل سيجارة في تؤدة :

- لقد تفضل مستر مونشي فوافق على أن يطلعننا على بعض ما يسترعى الانتباه هذه الليلة • فعقب مونشي قائلا في تواضع :

- أرجو أن أحقق لكما ما تريدان • فقلت له :

- شكرا ، هذا تفضل كريم منك • وهنا نهض المستر سكاياف عن مقعده قائلا :

- يحسن بنا أن نتناول العشاء الآن لتبكر بالذهاب . اليس كذلك يا مستر مونشي ؟

- ٢ -

ولما تحركت بنا السيارة ، سأل سكايڤ المستر مونشي قائلا :

- الى اين ستذهب بنا ؟

- اعتقد أنه يحسن بنا أن نبدأ بزيارة للافيرانا .

- وأظن أنه يحسن بنا أيضا أن نمر بطريق جرانت المطلعة على الشيطان و ...
- حسنا . حسنا .

وتوغلنا في طرقات ضيقة مزدحمة ، حتى توقفت بنا السيارة أخيرا . وتركناها وتبعنا الرجلين في ارفة ضيقة جانبية . وكان الأهالي من الهنود يحدقون فينا النظر ، وحمدت الله على أن . . . مونشي يسير في المقدمة ، لأنهم كانوا يتأملوننا كدخلاء على عييم الذي كان حيا هنديا بكل معنى الكلمة . ثم انتهى بنا المسير الى مكان فسيح قد اكتسب ارضه بالعشب الأخضر وانتشره الكلاب الضالة في ارجائه ، واستلقت فيه هنا وهناك هياكل من البشر وكأنها جثث قد تخلفت عن احدى المعارك . وبدأنا نجتاز هذه الأرض الفضاء ، حتى بلغنا رقعة من الأرض مسورة يتوسطها كوخ صغير مقام من عيدان الحنطة . وتوقف مستر مونشي عند باب السور المحكم اغلاقه بسلسلة ضخمة وقفل كبير . ثم حرك السلسلة حركة خفيفة ، جاء على اثر صليلها رجل يمشى على مهل ، حمل فينا بعينين زائفتين كعيني مجنون ، لا يدرك من حقيقة ما يقع نظره عليه شيئا . وما أن سمع صوت مستر مونشي ، حتى ادار المفتاح في قفل الباب وفتح على مصراعيه . ومنه دخلنا الى شرفة الكوخ ، ثم أعاد الرجل غلق الباب الكبير .

ورفع مستر مونشي مزلاج باب الكوخ ودفعه فاستجاب له . وانعكس ضوء المكان على وجهه ، فبدأ لي بملامحه وابتهامته ، غير هذا الوجه الذي كان معي منذ لحظات في منزل سكايڤ ، او في

الطريق الى هذا المكان • اذ انقلبت ابتسامته ، فصارت هادئة
وادعة تساير الجو الجديد •

ورأيت فيما رأيت ستة رجال يجلسون فى نصف دائرة على
أرضية الكوخ ، وقد اتشحوا بلباس من القطن أو الموسلين • وكان
يجلس أمامهم رجل آخر على منصة ، منتصب القامة عارى الجسد
الا من مئزر يستر عورته • وكان وجهه بلحيته المدببة البيضاء
وجبهته العريضة كقطعة من رخام قدت لتشبه وجه سقراط •

ودعانا مستر موسى للدخول ، ثم أغلق الباب وأحكم رناجه •
وأشار بيده إشارة فهمنا منها أنه يجب علينا ان نجلس العرفاء ،
وتبع هذا بأن ألقى بجسده على الأرض فى سهولة ويسر حتى
تعدو حذوه • ورأيت مستر سكاييف يجاهد نفسه حتى يضم
وكبتيه ، وأسرعت بدورى معتمدا على يدى ، محاولا أن أثنى ركبتى
كما يفعل الآخرون • وقمت بمجهود كبير وأسندت ساقى بذراعى ،
وشعرت بألم شديد فى ظهري ، وكان يجب بحكم هذا الوضع أن
ينحنى رأسى الى الأمام • ولاحظت أن القوم وعلى رأسهم زعيمهم
غرقى فى تأملات • ولم يكن هناك من أثر للحياة فيهم جميعا ،
الا حركة تنفسهم وخلجات جفونهم • ولقد خيل الى بادىء الأمر
أن « السيد » كما يدعونه لا يتنفس من شسدة سكونه • وكان
السكون مخيما على المكان مما أفقدنى الشعور بتقدير ما مر بنا من
دقائق أو ساعات فى جلستنا هذه • وخيل الى أن هذه الغرفة قد
عزلت نفسها عن الكون بعيدا • وطفى على شعور غريب أغمضت
معه عيني ولم أدر هل أنا فى عالم الحقيقة واليقظة أم أنا فى عالم
الخيال والأحلام • ثم عدت لافتح عيني وأتأمل « السيد » الجالس
أمامى على المنصة ، فرأيتة قريب الشبه بجثة رجل قد فارقتة
الحياة • بل ولاحظت أن سكون الموت يخيم على الغرفة كلها • مع
فقدان الاحساس بالزمن ، الذى يقتضيه الموت •

وانتابنى بعد ذلك شعور طارئ • شعور بأن هذا الذى
يخيم على القاعة ليس سكون الموت بالمعنى المعروف • بل هو شيء
أسى من ذلك وأعرق • انه احساس يسرى فى جميع كيانى هادئا

ملطفا مخدرا • احساس باعد بينى وبين الاهتمام بالزمن ، وحلق
بى فى سماء من اللاشعور والوعى بما يدور حولى •

ولم يطل بى هذا الاحساس اللاشعورى ، وأنفيت نفسى مرة
أخرى أهبط الى عالم الحقيقة والواقع • وشرعت فى وعى أتأمل
« السيد » ، الجالس على المنصة ، وأتأمل ببصرى بينه وبين أتباعه
المخلصين ، وبين مستر مونشى ومستر سكايف ، ثم رحت أصور
لنفسى ماذا يكون من أمر بيتر وميرفين ومازيو عندما أسرد عليهم
مغامرتى هذه ، أو اذا ما تصادف وشاهدوني فى جلستى هذه •
بل ولقد بدا لى ما مر بى من تسلط روح « القسير » على حتى
جذبتنى اليها واقتربنا معا من حافة عالم آخر ، فيه مدعاة للسخرية
وتندر الزملاء وهنذا أعود لأسعر بالام هذه الجلسة غير المريحة ،
وأتمنى لو انفض الاجتماع حتى أحرر نفسى من هذا القيد الثقيل •

وكان أبواب السماء كانت مفتحة عندما تمنيت ذلك • فقد
شعرت بحركة مفاجئة تسرى فى الغرفة ، واسترخى الجميع فى
وقت واحد • ورأيت السيد فيكرانا يعود الى عالمنا وتدور عيناه
فى مآقيها ثم تستقر على كعيون الأحياء ، بعد أن عادت اليهما
نظراتهما الطبيعية وعاد اليه تنفسه الطبيعى • وبدأ يحرك يديه
وكل عضلة من عضلات جسمه • • وعندئذ التفت مستر مونشى
لناحتى وابتسم •

وبدا السيد يجول بعينه فى الحاضرين ، وبإشارة من يده
قام اليه أحد أتباعه واقترب من المنصة ، ثم جلس تحت قدميه •
وأمسك السيد بلوح كان موضوعا بجانبه قد سطرت عليه
الحروف الأبجدية الهندوسية • وشرع فى تحريك أصابعه من حرف
الى آخر بسرعة فائقة وكأنه يملئ رسالة على تابعه • وتذكرت
حينئذ أن السيد فيكرانا قد أخذ عهدا على نفسه بالانزام الصمت
وكما قيل لى • ولم يكن هذا التابع والمريد الا لسان حاله المعبر •
ونطق التابع بما فهمه من اشارات سيده بلفة لم أفهم منها كلمة
واحدة ، وان كنت قد أدركت من نظراته نحوى اننى المعنى بحدينه ،
وبدا مستر مونشى يترجم ما يسمعه :

يقول « السيد » انه سعيد بهذه المفاجأة غير المنتظرة •
وأومات برأسى تقديرا وشكرا • ثم استطرد مستر موسى قائلا:
- ويريد السيد أن يعرف ما اذا كانت زيارتك هذه بدافع من
حب الاستطلاع فقط ، أم انك تبحث عن معالم الطريق ؟
- قصدت الأمرين معا •

ولاحظت ان موسى قد أضاف من عنده غير الغليل لشرح
توايى ، لأننى لاحظت ان لالا فيكرانا كار يومىء برأسه راضيا
مسرورا • ثم راح يحدق النظر فى وكأنه يريد أن ينعذ الى أعماق
نفسى • وانتظر الجميع ما سيصدر عنه • كما كان أتباع سقراط
يقفون حوله ليلتفوا الحكمة عنه •

وأخيرا • بدأ السيد يحرك أصابعه على الحروف الأبجدية •
ونطق بالتابع بصوت سيده ، وترجمها مستر موسى بالتالى قائلا :
- يقول السيد انه لاحظ وجودك لفترة ما اثناء غيبوبته •
كما لاحظ انك كنت تراقبه • ويرى مما اجتمع لديه من ملاحظات
انك لم يكن جادا فى دخول الدائرة الروحانية ، وأنتك تساعد بدور
الشك على أن تنمو وتنتشر فى نفسك ، مما يساعد بينك وبين
الدخول فى عالم اليوجا بكل قلبك ووجدانك •

ثم استطرد قائلا :
- وقد تفضل بالموافقة على الاجابة عما قد يعن لك من اسئلة •
فقلت من فورى :

- هل يرى السيد أنه من الممكن أن يجد الانسان السعادة
فى مجال أقل من ذلك •

ونقل السؤال اليه وسمعت الرد سريعا •
- يقول السيد ان ذلك استطاع تحقيقه • وهو يسألك لماذا
تهتم بتوجيه هذا السؤال مع أنك تعرف الاجابة عليه • وهو يريد
أن يصارحك بأن استعدادك لدراسة يوجا الجسد سيعينك
على تذليل كل ما أمامك من صعاب ، واذا ما حدث عن المبادئ
المسيحية التى يجلها السيد ويحلها من نفسه فى خير مكان فانك
لن تصل الى يوجا العقل •

وبعد برهة وجيزة تحركت فيها اناامل فيكرانا لما يريد أن يتحدث به :

— انه يقول الآن ، انه مسرور لانك لم تطلب منه ما يطلبه غيرك من الزائرين البريطانيين ، من قيامه بعرض الألعاب والتسودع . وهو وان كان في استطاعته القيام بمثل هذه الأشياء . التي يستعرض قدراته وامكانياته ، الا أنه لا يرى في ذلك أكثر مما نرونه في اللاسلكي كنمرة من ثمار عقول علمائكم . وهو يسلم بعضة عمانكم وبمهارتهم وسعة باعهم ، ولكنه يرى فيما يسلكونه من سبيل للوصول الى ما هو أبعد مدى من عالمنا هذا ، ما سيمتد بهم الى ما لا نهاية له ، لبعده الشقة وما يصادفهم فيها من صعاب وشراب جميل حداد . وهو يعتذر بضيق وفته الذي يجب أن يخصصه لتلاميذه واتباعه ، فهل لديك ما تضيفه الى ما سبق قبل أن تنفرغ لهم . ؟

— كلا . الا اذا تنازل بترويدى بنصيحة احتفظ بها كذكرى لزيارتي هذه .

ولاحضت أنه على استعداد ليحبيب على سؤالي . ورائيه يتخلل لحيته بصابعه مستغرقا في التفكير . ثم حدجني بنظرة فاحصة ثابتة . وبدايته نظراته ثم حاولت أن أسمح بوجهي عنه ، ولكنني لم استطع . وتبينت في نظراته تحديا لي بأنني لن أستطيع عدا . وفعلنا ظلم عيناي عالفة بعينيه . وشعرت بأنه سلبني كل ارادتي حتى التحكم في عيني . ولمست قوة تأثيره وسيطرته على . فقد زاع مني البصر وخيل الى أن هناك شبه ستار من الضباب تنسلل بيننا . ولم أر من خلال هذا الضباب الا عينيه تنفذان منه وتخترقان حجب الغيب من نفسي . ثم بدد هذا الضباب صوت تابعه وأعقبه صوت مستر مونشي قائلا :

— ان السيد يقول انك تستطيع الكثير . وانك بهذه الطاقة تستطيع أن تمنح السعادة ، وأنه ينبغي عليك أن تكون حريصا كل الحرص في اجتناء ثمرة هذه الطاقة . وهو يرى انك ستسعد وأنك ستشفي . وأنك عندما ستبلغ ذروة شقاك ، ستكون تعزيتك أنك

تدفع ثمن ما بلغت من ذرى السعادة والهناء ، وإنك استطعت أن
تسعد غيرك .

وعندئذ بهضنا من مجلسنا ، وحيينا وانصرفنا . وخرجنا
الى الهواء الطلق الذى ملأت به صدرى . وفتح الحارس العجوز
الباب الخارجى ، وانطلقنا فى طريقنا . وسمعت سكايڤ يسألنى :
- هيه . . ما رأيك ؟ .

لقد شاهدت عجبا . ولكننى أرى أن ما قاله لى يصدق على كل
شخص . أليس كذلك ؟ أليس فى إمكاننا أن نسعد ونسعد غيرنا ؟
أليست قاعدة الحياة أن نسعد بم نسمى وهكذا

- ٣ -

وعدنا ادراجنا ، وقدمت سكرى وتحبانى ستر مونشى على
ما قام به من أجلى . وتركنا ستر موسى عمى بوليسدو .
ولما واصلنا السير فى طريقنا الى منزل سكايڤ بنساء على دعوته
لى لتناول كأس من الويسكى ، كانت الساعة ثم تبلغ بعد الحادية
عشرة . وصرف خادمه ، وجلسنا بمفردنا نحسى كئوس الويسكى
ونتجاذب أطراف الحديث ، كان يجلس فى مواجهة ، وتطرق بنا
الحديث الى الیوجا . وأدركت من حديثه سعة اطلاعه . ولمست
ثقافته الجامعية . ثم تبين لى أن الحديث كان يدور فى دائرة مفرغة
حول ذاته . ولاحظت أنه قريب الشبه بفينويك فى شدة اعتزازه
بنفسه وتظاهره بطول باعه .

وعن عمد منه ، انتقل بنا الحديث بعد ذلك الى سابى . وبدأ
يتحدث عنها كأمر لا بد منه . وسمعتة يسألنى فجأة :
- اذن فانت تتعلم اليابانية ، ما رأيك فى هاناكو ؟ .
وتظاهرت بأننى لم أفهم سؤاله . فأردف قائلا :
- مس وى ؟ .
- آه . . انها خير معلم . . ان لغتها سليمة .
- ما رأى الآخرين فيها ؟ .

- رأيهم من رأيي •
فنهض عن مقعده وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وكان شيئا
ما يحثم على صدره •
فسألته بدورى :
- هل لك معرفة بها ؟ •

وفى الحق اننى لم اكن ارغب فى اخوض حديث عنها ، وبالذات
مع مستر سكايڤ • ولكننى فى الوقت نفسه كنت مشغولا لأعرف
منه المزيد ، وسمعته يقول ردا على سؤالى :
- بكل تأكيد •• أعرفها خير المعرفة

- أظن ان الطقس هنا لم يلائم صحتها فى أول الأمر •
ولم تكن صحتها لتعنيه فى كثير أو فى قليل •• فأجاب :
- انها فتاة جميلة •

ثم حدثنى بنظرة فاحصة ، ونخيل الى انه لم يأت الى منزله
ويدعوى لهذه السهرة الا لأنه كان يشك فى أمر العلاقة بينى وبين
سابى •• بل ولقد توقعت أن يقول لى : « ان هذه العلاقة يجب
ان تتوقف ! » الا انه أردف قائلا ، وفى لهجة نوحى انه يصر على
أن يسمع منى رأيي :

- ألسنت من رأيي ؟

- أجل • فانى أراها جميلة فعلا

- انها فى رعايتى هنا • لقد كان اللورد ديربستون الوصى
عليها يقيم هنا فى الهند • وهو من أعز أصدقائى • وهو الذى عهد
الى بالسهر عليها •

- آه • هكذا

- انها فتاة غريبة الأطوار

- انها يابانية

- أجل ، أجل • ان اليابانيات يمتزن بحاذقة خاصة بهن ،

لقد أتيج لى ان أعرف الكثير منهن •

ولاحظت وهو يصب لنفسه كأسا أن يده ترتعش • كما لاحظت
أنه كاد ينسى وجودى • وأنه لم يكن يحاول أن بسطع دخيلة نفسى
بقدر ما كان يود أن يطلعنى على دخيلة نفسه هو • فاستطرد قائلا :

- أجل .. ان هاناكو فانتة . ان الأرجل لا بطمع فى تخير منها .
ونهتست واقعا وقلت له :

- يجب أن أنصرف الآن . لقد تجاوزنا منتصف الليل
- كلا يا صديقى . مازلت بحاجة الى أن أزيد من الحديث عنها
مع شخص يعرفها .

- ولكننى يجب أن أعود الى غرفتى الآن .
- لم يزل فى الوقت متسع .. اليك بكأس أخرى . انا اعرف
لماذا نريد أن تسرع بالانصراف . يمكننا أن نتصل بها تليفونيا .
وسأخبرها بأن أحد نلاميدها هنا فى منزلى .
- ان الوقت متأخر

- ان من واجبى أن أسهر على راحتها

- ما أظن ان فى ذلك راحة لها

وأصر على الاتصال بها

وصممت نأ على الانصراف .. وأخيرا اتجهت صوب الباب
وسلم هو بالأمر الواقع ، وودعنى عند الباب قائلا :

- أرجو أن تشرفنى بزيارتك فى أى يوم تشاء .

وربت ببسده على كتفى ، مكررا دعوته لى بالعودة لزيارته .
وكان على أن أقطع نصف ميل قبل أن أصلى الى موقف عربات
الغارى . وامرت السائق بالانطلاق الى فندق الماي فير .

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف الليل عندما
وصلت الى الفندق . فنقدت السائق أجره ، واندفعت الى بهو الفندق
مسرعا ، وقد حرصت على ألا يرانى احد . ثم ارتقيت الدرج قفزا
وطرقت باب غرفة سابى برفق . ودخلت لأراها جالسة فى انتظارى
فاتعذرت لها عن حضورى فى هذه الساعة المتأخرة ، وصارحتها
بأننى لم أستطع ان آوى الى فراشى قبل ان أراها . وسردت عليها
باختصار تجربتى مع اليوجا .. ثم لاحظت انها تضع بجانبها على
الفراش دفتر يوميات ، حاولت أن أطلع عليه فرفضت . والاحت
فأصرت على الرفض . وسألتها :

- أليدك من أسرار تخفيها عني ؟

- أنت سر حياتى .



رأيا اطمأنت الى اقتناعي بردها • سألتني أن أحدثها عن مستر
سكايف وعن رأيي فيه •
فقلت لها :

- أنه رجل غريب الأطوار •

- هل تحدثت ما عني ؟

- قليلا

- وماذا قال لك عني ؟

- قال انك جميلة ، وأن من واجبه أن يسهر عليك

- هل هذا كن ما قاله عني ؟

- لم يقل غير ذلك

- كلا انك لا تريد أن تصارحنى بالحقيقة • أرجوك أن تخبرني

بكل ما قاله عني • فإن فعلت ذلك اطلعتك على مذكرتي

- أؤكد لك بسرري أنه لم يكن هناك أكثر مما قلته لك

ولكنها أصرت على اسى أخفى عنها شيئا • فعجبت من أمرها

وسألتها :

- ترى ماذا تحسبن أن يكون قد قاله لي ؟

- لطالما وددت أن أصارحك بذلك • ولكنني الآن أجدني راغبة

في عدم مصارحتك بالأمر ، خشية أن يعكر هذا صفو سعادتنا •

ولما ألححت - تضرعت الى قائلة :

- أرجوئ لا تلج على ، ولنؤجل الخوض في هذا الحديث •

وكنت بسبيل مواصلة اصراري على أن أعرف كل شيء •

ولكنني سمعت وقع خطوات في الدهليز ، فأمسكت عن الكلام

وأرعمت السمع • وتبينت ان القادم ينجه بخطواته صوب غرفة

سأبي • وبالرغم من ذلك ، كاد قلبي يقفز من جنبى فزعا عندما

طرق القادم باب غرفتي • وقلت لنفسى : ان شيئا ما وشيك الوقوع

وكان القدر قد أحكم توقيت هذه اللحظة في نفس الوقت الذى كنت

سأسمع منها ما كانت تخفيه عني • لقد أصبحنا فى طريق مسدود

لا رجعة لنا منه • فسألتنى سآبى وهى فى فزع وهلع :

- ما عسى أن ترانى فاعلة ؟

- نادى من الطارق ؟

ففعلت • وسمعنا صوت الحارس الليلي يقول بالانجليزية :

— مكالمة تليفونية لك

— لي أنا ؟

— أجل • مستر سكايف على الخط • وأفهمنى أن اخطرك بأن

الأمر عن شيء عاجل

واسقط في يد سابى ، ولم تدرك ماذا يفعل • ترسيب يها

الحيرة واستند جزعها قائلة :

— لن أذهب

— بل من الحير لك أن تجيبى النداء

— انها بداية منزلق الطريق ، ولا يمكن لأحد أن يغف فى طريق

أحداث القدر •

وأصرت على الرفض ، ولكننى نصحتها بالذهاب حتى ترى ماذا

يبقى من هذه المحادثة .. وبعد أن ترددت قليلا عملت بنصحى

وأسرعت الى الخارج •

وجلست فى انتظارها أقلب الأمر على كل وجوهه • ودار

بخلدى انه يحسن بى أن انصرف واتجنب ما عساه يكون من مواقف

وداع اليمه • وعجبت من أمر هذه الحياة وأقدارها وكيف تنتقل

بالمرء سريعا من سعادة الى شقاء ومن شقاء الى سعادة فى توقيت

محكم ، دون أن يكون للانسان ارادة فى ذلك • فتشعره بضالة

شأنه وبأنه لا حول له ولا قوة •

ثم تساءلت فيما بينى وبين نفسى عن السبب فى كل هذا الذى

يجول بخاطرى • ولم أجد سببا معينا ولا تفسيراً لشعورى هذا الا

ان قلبى كا يحدثنى بأنها النهاية •

وأخيرا أقبلت سابى تقول :

— لقد كان جد مخمور

— أعرف ذلك

ووجدتها تقبلنى وتهمس فى 'اذنى'

— ألم تعد تحب بعد سابى ؟

— ولم لا ؟ لعلنى أنا الآخر شبه ثمل

— لماذا لا تقبلنى ؟

فقبلتها • ولكنها كانت قبلة فائرة • ان القبل كالسعادة
لا تظاهر ولا ادعاء بها • انها احساس فى القلب يتجاوبه وجدان
المرء • ولاحظت أنها شعرت بهذا الفتور وإبتاست • وتبادلنا تحية
المساء فى برود •

الفصل الرابع

- ١ -

ولم أتحرق شوقا فى اليوم التالى لحضور الفصل الدراسى
المخصص لها • ولما حضرته كان أسوأ فصل شهدته • بل وجلست
أترقب أن تسرع دقائقه فى الانتهاء •

دكات هى بادية التعاسة ظاهرة الشجن • • ولم يكن ثغرها
ليصر الا عن ابتسامة باهتة اذا ما دعا المجال الى ذلك • وقد تجنبت
أن تلتقى عيناها بعينى ، وكنت أسيح عنها بوجهى •
وشاع جو من الفتور بيننا ، حتى أنها عندما دعتنى لأستقل
الفارى معها ، اعتذرت بأننى ذاعب الى نادى الكريكت واننى افضل
قطع المساهة سيرا على الأقدام •

ولم يكن فى بيتى أن أتوجه الى النادى ، ولم يكن هذا منى الا
ادعاء لعدم رغبتى فى أن أستقل العربيه معها • ولم تكن هذه الرغبة
منى الا عن شعور كاذب ، لأننى كنت فى الواقع أتحرق شوقاً لقضاء
السهرة معها • وأحسست بأن الأمور تختلط على وبأننى لم اعد
أدرى من امر نفسى شيئاً • ورحت أستعرض ما كان فى الليلة
السابقة فلم أستطع أن أحدد منه شيئاً ، وتبينت أن أفكارى
متوشة متداخلة • ولكننى كنت أعرف اننى فى غير راحة نفسية ،

بعد ما أكون عن صفاء الذهن وهدوء القلب . وليس من شك في أن هناك ما قد أفسد جو هنائي وسعادتي ؛ ولكنني كنت عازفا عن التوغل في سبر أعماق هذا الشئ ، خوفا ووجلا . انه الشك القاتل الذي ينقص على الناس حياتهم .

صفاء الذهن وهدوء القلب . وليس من شك في أن هناك ما قد أفسد جو هنائي وسعادتي ؛ ولكنني كنت عازفا عن التوغل في سبر أعماق هذا الشئ ، خوفا ووجلا . انه الشك القاتل الذي ينقص على الناس حياتهم .

وكان بيتر قد أعد لزملائه المقربين سهرة دعا إليها لامبوفتاته ، وميرفين ، وهاريو وفتاته الجميلة . كما دعا إليهما روزي التي أصبحت محل تقدير الجميع . وليس من شك في أنني كنت فؤاس قائمة المدعوين

وتناولنا عشاءنا في عظم هندي ثم عدنا الى الفندق . وهناك ليونا وشربنا وعبثنا وطربنا . وكنت أحاول أن أندمج مع المجتمعين فيما كانوا فيه حتى أنسى التفكير في سابى ، وقبما شغلنى من أمرها .

وانفرط عقد المدعوين . وفضلت أن أتخلف لأجلس مع روزي في عدوه . بل ولعلنى فعلت ذلك لأننى شعرت بأنها كانت نرغب في هذا . وأشعلت لفافة تبغ لنفسي ، وأشعلت لها أخرى ، وتطرق بها الحديث الى سابى . قالت لي :

— لقد حدثني بيتر بعلاقتك بها .

— ترى ماذا قال لك ؟

— لا تخف . . انه لم يتحدث بهذا لغيري .

— ان علاقتنا قد أصيبت بصدع شديد

— وكيف حدث ذلك ؟

— لست أدري . لعلها الغيرة

— الغيرة من ماذا ؟

— من المجهول .

— قد يكون الأمر كله مجرد تخيل كاذب للأمور

— قد يكون ذلك

— وبالرغم من شعورك هذا فقد أثرت الهرب

- أجل . قبل أن يستفحل الأمر ،
 - ولماذا لم تحاول أن تثبت مما آلتك ؟ السنت ترى بتصرفك هذا
 أنك تسىء الى انسان دون مبرر وبناء على وهم خاطئ ؟
 - انها يابانية وأما انجليزى ، وبلادنا فى حالة حرب طاحنة ،
 وهذا يكفى .
 - كلا . نيسيت هذه بمشكلك . انك تهرب من الواقع
 - اذن . ما دمت قد عرفت المشكلة الأساسية ، فماذا توبن
 من حل لها ؟
 - وليس على أى مهما قلت لك ، سأستطيع أن أقضى على
 ما أعقد نفسك . هنا الى فراشك . انك شخص معقد لا تدري ماذا
 تريد وماذا تبغى . أخذ الى النوم لترى ذهنك المكبود . الى الصباح
 فقد ينير لك ضوء النياز ضلمات الطريق
 ونهضت فعلا . وتركت روزى ، ولكن ليس الى فراشى ، بل الى
 الطرقات اهدم بب عى وجهى . ولم افزع الى النوم لأجد فيه راحة
 نفسى ، بل فزعت غربا وسرت على غير عدى . وأخيرا قادتني قدماى
 الى حيث أجد سبى لأحتفى بها مما يحتم على صدرى وينوء بحمله
 رأسى .

- ٢ -

لقد عرفت انها فى قلبى بين اعز شفافه ، واننى أحبها حبا
 يسرى مع كل قصرة من دماي وينفذ الى خلايا كياني .
 وبعد أن استقر بنا المقام ، قبلتني قبلة كلها الحنان قائلة :
 - ميشيل ، كنت أريد أن أصارحك بكل شيء منذ البداية .
 وان كنت لم أفعل ذلك ، فهذا لأننى كنت حريصة على ألا أخرج
 شعورك فتتوقف عن حبى . فاذا ما وعدتني الآن أن ما سأخبرك به
 لن يؤثر فى حبنا ، فسأحكى لك كل شيء
 - أولا ، أعذك بذلك ، وان كنت لست بحاجة لأن تخبريني
 بشيء ، فالأمر عندي سواء .
 وفعلا لم يكن ما صارحتني به بنى بال ، ولم يكن له من تأثير

على حبي ، اللهم الا أنه ازداد اشتعالا . ولقد بدت فاتنة مشيرة
وازدادت جمالا وحسنا في عيني ، وهي تسرد على مسامعي :
- كان ذلك عندما كنت طالبة بالمدرسة وقرر والدي أن يزوجني
من أحد أصدقائه اليابانيين . وكنت أراه بشعا لا يطاق ، وأنني لن
أرضى بأن يظلمنا سقف واحد . وكانت والدتي مضطرة لمجاراة
والدي الذي كان مصمم على اتمام هذه الصفقة . أجل . فقد كان
يرى في اتمام هذا الزواج صفقة لا أكره ولا أقل . ولما سمعت
على رأيي بالرفض . اشتد في تعنيقي وزجرني وهددني . والحقت
والدتي في الرجاء باكية منتحبة لأقلع عن عنادي ، وتوسلت الي في
لجة من دموع أن أطيع والدي
- وعلى نم الزواج :

- كلا . لم يتم . وإن كنت فسد عقدت انسية على الامتنعابة
لأنحاح والدي التي كسب سديده التعلق بها . الا أنه قد حسدت
ما لم يكن في احديهما . وما أعذني من اتمام هذا الزواج . فقد
كان هذا الرجل بتردد عني منزلنا ، وكان أحيانا يسطحننا جميعا
للمسرح وذات مساء بدت منه بادرة امساء والدتي منها . ولم
يستطع ان يحدني في امر زواجي من هذا الرجل ثانية . ثم
أصلحني معه الى إنجلترا . الى آخر ما تعلمه من ذلك مما سبق
ان سردته على مسامعك . ثم كنت انت النور ، الذي تدفق فهدد
ظلمة حياتي ، والقبح المشع في كيائي كله .

ولم أجسد من الكدمات ما أستطيع أن أعبر به عما يختلج في
وجداني ونعمتل به نفسي . غير أن أطوفها بذراعي وأغطي وجيها
بالقبيل .

ثم استفسرت منها عن سبب تجنبها لمستر سكايك وخذمتها
منه . وصدني حدي عندما سمعت منها أنه قد حاول أن يينها
لواعج غرامه بها ، فصدنه ونهرته وأردفت قائلة :
- تلك هي قصة حياتي وما فيها من خفايا . ولم يعد في أي
جانب منها شيء يخفي عليك

- هذا عن الماضي . ولكنني لا أعرف شيئا عن المستقبل . فهل
تنتوين العودة الى اليابان بعد انتهاء الحرب ؟

- لست أدري • دعنا من المستقبل ولنعيش في حاضرننا
- ان المستقبل سىصبح حاضرا فى يوم من الأيام
- أرجوك ياميشيل ، دع المستقبل لما قدر له ، ولننعم بحياتنا
ويحبنا ووجودنا الحاضر . لا تعكر صفو الحياة بالتفكير فى نبش
دفائنها •

- انك نعرفين اننى أحبك • ومن دلائل الحب الصحيح أن يهتم
المرء بحياة من يحبه ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا
- أعرف ذلك • وأريدك أن تعرف أيضا ، انك لن تتزوج منى
أبدا • فليست أرضى لنفسى بأن أكون عبئا ثقيلا على حياتك • ان
كل ما أريده منك أن تشاركنى سعادة الحاضر دون قيد أو ارتباط
يوعد • أرجوك أن تشاركنى هذا الشعور وهذا التمنى • كما
أتوسل اليك أن تضع نصب عينيك أننى لن أكون زوجة لك فى يوم
من الأيام •

- فنيكن • لك ما تشائين • وسأجتهد ألا أنسى هذا •
ولكننى كنت فى حيرة مما قالت •

الفصل الخامس

- ١ -

منحنا اجازة لمدة شهر ابتداء من منتصف شهر يونيو • وكان
موعد هبوب الرياح « الموسمية » على بومباى قد اقترب ، ولسكننا
رحلنا عنها ، قبل أن نقاسى منها الشئ الكثير •

ولقد كنت أعد الأيام والليالى ساعة ساعة ، وأتوق لقضاء هذا
الشهر فوق سفوح الهملايا مع سابى • وكنت أتخيل أيامى معها ،
من شدة تصورى لهناء ساعاتها ، حلما كنت أخشى ألا يتحقق • لقد
ركان هذا الشهر فى تقديرى هو المستقبل الذى قد لا يكون بمده

أى مستقبل ، انه المستقبل الوحيد الذى سمحت لى ولنفسها بأن
نفكر فيه .

واستأجرت مفسورة خاصة مكيفة الهواء فى القطار الصاعد الى
سفوح الهملايا . وذهبت مبكرا الى محطة سكة الحديد ، ومعى
باهادور ، الذى كان يحمل معه جميع ما نحتاج اليه فى هذه الرحلة
من فاكهة الى أزهار الى آلة تصوير الى مياه مثلجة ، الى آخر هذه
الحاجيات .

وكنت من فرط سعادتى ، اتصل بسابى بالفندق حتى 'طمئن
على أنها لن تتأخر . ولم تحتمل أعصابى عد الدقائق الباقية على
موعد وصولها ، لأننى كنت أخشى وقوع ما قد يعكر على صفو
حياتى .

وأخيرا أقبلت سابى تنهذى كنفحة النسيم الرقيق . ووصلت
فى الدقيفة التى انفصا عليها . وحيثنى بوجه يفيض بشرا ، ثم
صعدنا الى مفسورتنا . ونحرك القطار ليبدأ مرحلة من حياتنا
كنا نسبق عمرنا لنعيش فيها قبل أن تحتل مكانها من الزمن .
وتأملت سابى ، وتأملت كل ما يحيط بى ، ونظرت من خلال نافذة
لأرى بومباى بمبانيها وهى تغيب عن ناظرى ، وكنت أحاول أن
أعيش فى كل دقيقة تمر بى طولا وعرضا ، لأننى كنت اعرف اننى
أمر بلحظات لن تتكرر فى حياتى .

وبوقف القطار بأحدى المحطات فى صباح اليوم التالى ، ورأيت
مظلة تمتد على رصيف المحطة . وظل القطار يتحرك ببطء حتى
توقف نهائيا ، بحيث أصبحت إحدى العربات فى مواجهة المظلة
تماما . وطال وقوف القطار قبل أن نتحرك من جديد .

ووقع نظرى على لافتة عليها اسم المحطة . وعرفت منها أنها
محطة دهاناپور . فأدركت لتوى أن المظلة كانت للنواب الذى كنت
زميلا له فى المدرسة . فكلفت باهادور بالتحرى عما اذا كان النواب
بالقطار . وعاد بعد قليل ليخطرني بأنه بالقطار . فبعثت بمذكرة
معه اليه . وجاءني الرد على ورق أنيق مصقول ، بخط جميل

وقيق ، يدعوني الى تناول الغداء فى عربته . ولم يكن فى نيتى
أن أقضى دقيقة واحدة دون أن تكون معى سابى ، فاعتذرت بأن
زوجتى معى . وبعد قليل أرسل النواب دعوة أخرى لى ولزوجتى .

وفى الحق أننى كنت اهيىب عدا اللعاء . ولكن معايلته الحارة
لى قضت على هذا الحرج ، ثم قدمنا الى زوجته الجميلة التى لم
تتجاوز التسعة عشر ربيعاً ودعت الروجة سابى للجنوس الى
جانبها ، وكانت نسيبها فواما ، حتى ليخيل للرائى من بعيد أنهما
توءمان . ولاحظت أنهما متفاعمتان ونهما قد ساد بينهما جو من
الود الصافى . أما نحن ، الرميلان القديمان ، فقد عدنا بحديثنا
الى أيام الدراسة والحب . وبين كنوس الويسكى وأندخان المتصاعد
من لقاقت التبغ ، امتد بنا الحديث الى كل ما هو شيق جميل .
وحان موعد الغداء ، ومدت المائدة بكل ما لذ وطاب من أشهى
الأطعمة ، وكدت أسأل صديقى كيف يمكن أن يقدم لنا كل ذلك
وهو لم يكن يعلم بحضورنا ، ولكننى سكنت فى آخر لحظة عن
الكلام الغير المباح فى بلاد الشرق الكريمة التى نحب الضيفان .

وقضينا معا وقتاً جميلاً ، ثم نهضنا نستأذن فى الانصراف ،
فأحسن وداعنا كما أحسن لقاءنا ، وسألنى ألا أنقطع عن الاتصال
به . وعدنا الى مقصورتنا مذهولين من كل هذا البذخ ، وقد عقدت
ألسنتنا الدهشة من كثرة ما كان يحيط بنا من مطاعر التراء .
وبعد أن استقر المعام ، وزال ما بنا من آثار تلك الساعات الحاملة ،
وعدنا الى عالمنا المتواضع البسيط ، جلسنا نتحدث فيما رأينا
وشاهدنا .

ووصل القطار الى محطة دلهى فى المساء وتركناه لنستقل
قطارا آخر لم يكن به مقاصير خاصة مكيفة الهواء . وكان الطقس
شديد الحرارة . فقاسينا منه الأمرين . وكان علينا أن نقطع
ما لا يقل عن ثلثمائة ميل لنصل الى سفوح الهملايا . ثم تركنا
هذا القطار الى غيره فى صباح اليوم التالى . وبدأنا نقترّب من
منطقة الجبال عند ظهر هذا اليوم . وكانت المناظر التى تحيط

بنا راحة أخاذة • وعندما بلغ بنا القطار محطته النهائية ، فضلنا
أن نستقل سيارة خاصة نقطع بها الخمسين ميلا الباقية •

وصعدت بنا السيارة الطريق بين كثير من الصحور وفي
مسالك شديدة الانحراف وعلى انحناءات تشرف على الهاوية ، مما
كان ماثرا لفرعى وخوفى الشديدين ومن تضرعى المنكر للسانق
أن يخفف من سرعة سيارنه ببح صونى ، أما سادى عمد اضطجعت
فى مقعدها غير عابئة بشئ مما يجرى حولها • كانت سعيدة هانئة
تأمل ما حولها فى غبطة وسرور • وكان الطقس يرداد تحسنا
ولفنا كلما ارتفع بنا الطريق ، وملأنا صدورنا بسميم الجبال
الذى يرسل البهجة والانعاش ولم نعد زحمة الحياة • وانتشينا
بخمرة هذا الهواء ، كما كنا ننتشى بشمبانيا الكنوس • وبلغنا
• جالى نال • وقد سكرنا بخمر الطبيعة والجبال •

- ٢ -

كان مستر هيدلى هو الذى دلنا على هذا المكان ، بعد أن
سأله أن يعين لى مكانا هادئا بعيدا عن زحمة الحياة • وإن كنت
لم أوضح له السبب فى طلبى هذا ، إلا أنه فهم ما أبغىه وابتسم
ابتسامة العارف ببواطن الأمور وهو يقول :

- جالى نال هى بفتك • مكان هادئ جميل بعيد عن العمران
يمتاز عن غيره من نواحي تلك البقاع ، يبعده عن كل مظاهر الحياة
الصاخبة بما فى ذلك الرقص •

وما أن وقعت انظارنا على هذا المكان ، حتى عقدت الدهشة
السننتنا ، وكنا أشبه بطفل فض الغلاف عن هدية عيد الميلاد ،
ففرجى بروعتها وبجمالها وبأنها هى ما كان يحلم به من بين جميع
الهدايا التى تقدم فى مثل هذه المناسبة •

كان المكان عبارة عن بحيرة أودعتها الطبيعة فى أحضان
الجبال التى كانت تعلوها بقممها الشامخة واحدة بعد أخرى •

مختلفة الألوان ، متغايرة الأشكال ، حتى تبلغ غنان السماء بيضاء
ناصعة كالثلج . وقفنا ننظر إليها ونتأملها مأخوذين بروعتها .

ولم يكن يحيط بالبحيرة أكثر من عشرة منازل ، وعلى بعد
ميل منها كانت تقع القرية . وكان الفندق الذى نزلنسا به على
ارتفاع مائة قدم من سطح البحيرة - مما أتاح لنا أن نشرف على
هذا المنظر البديع من نوافذ حجرتنا . وتملكنا احساس طاغ بأننا
نشرف من نوافذنا على العالم كله ، ونعلو بها عن الصراع البشرى
الدائر على سطحها . وقدم باهادور الشاي فى غرفة الجلوس الملحقة
بغرفتنا ، وجلس يتأمل كل ما يحيط بنا من جمال ، مسحورا
مبهورا .

وكان بالفندق زوار غرنا . وكانوا جميعا من الانجليز ، غير
واحد فقط من الهند هو السير رام ناث ، الذى كان سيدا بحق ،
من خريجي جامعة اكسفورد والسوربون وغيرهما . وفى الواقع
أننى اعجبت بالرجل وبنظراته للامور ، وبخلقه الرفيع . وبلغ اعجابى
به حدا كنت أفضل معه ان 'تخلف فى ردهة الفندق لأقضى بعضا
من الليل معه وأدع سابى تسبقنى الى النوم .

ولقد تعلمت منه الكثير . فقد كانت له آراء فلسفية فى أدق
نواحي الحياة . ولغنى فيما لغنى أن هناك فرقا كبيرا بين دعة
الحب وبين دعة الضعف .

وكان من بين النزلاء سيد جليزية تصطحب ابنتها وولدها ،
وحل يسا التفاهم وفضينا ساعات جميله فى رياضة ممتعة سيرة
على ظهر الجياد . وكانت اول البنيتين ندعى مرجريت والاخرى
جنيفر .

وكان يطيب لنا من وفد آخر أن نفوم برحلات قصيرة سيرا
على الاقدام ، حيث تقضى اليومى عزلة عن العالم ، بين السماء
والأرض وفى أحضان الطبيعة الخلابة . ولئن أنسى هذا اليوم الذى
قضيته تحت ظل دوحه انفردت بهما ، حتى أننى كنت لا

أدري أهي دوحة في السماء ، أم شجرة على الأرض • فقد كانت
هناك لحظات لا يمكن لقلمي هذا أن يفيها حقها من وصف ، أو أن
ينقلها حروفا على هذا الورق • فأننى مهما أطنبت في وصفها ،
فما أطننى الا بمشوه حقيقة صورتها الرائعة الجمال •

وأيام الهناء تمضى سراعا ، ولا نكاد نحس بهسا من فرط
سعادتنا • وهي تمر ساعات أو قل دقائق لا ندرك لها حسدا أو
عدا - بحساب الزمن - • وهكذا كانت أيام هذا الشهر ينساب
من حيانتنا كما ينساب الماء من بين أصابعنا لا نستطيع له قبضا •

وفى ساعة صفاء هادئة ، جلسنا نتجاذب أطراف الحديث ،
لنستعيد به حيانتنا منذ أن وقع نظرى عليها لأول مرة ، الى أن
بطرق بنا الحديث الى أننا لن نستطيع أن نعود الى حياسا الأولى ،
كل فى عرفته بالعندق بعيدا عن الآخر ، واننا يجب أن نعيش فى
بومباى فى منزل واحد يظلنا سقفه • قلت لها :

- سابي بقى أمر يشغل بالى •

- ترى ماذا عساه أن يكون ؟

- انه امتداد لسعادتنا • هل تزوجين بى ؟

وران علينا صمت مطبق ثقيل • وحرصت ألا تلغى عنساى
يعينيتها • فما كنت أنوق الا الى سماع صوتها ردا على سؤالى •
ولكننى أدركت أنها تبكى • فلما التفت اليها قالت لى :

- ميشيل ، لقد سبق لى أن صارحتك بذلك • وأرجوك ألا
تعيد على مسامعى هذا العرض • عدنى بذلك • هذا رجائى •

- ٣ -

وقل وحيلتنا ببضعة ايام ، ازداد تعلق مرجريت وجنيفر
بسانى • رسابفت كل منهما فى التعبير عن شعورهما بتقدير هدية
لها ، تقديرًا وذكرى لهذه الأيام الجميلة • ورايتهم تدرقان الدمع

كلما اقترب يوم رحيلنا عن جالى تال . ثم اتفقنا بعد ذلك معا على تقديم هدية مشتركة لى ، تقديرا واحتراما لشخصى ، مع رجائهما أن أقبلها وأوافق سلفا على أن أكون بالنسبة اليهما العم ميشيل .

وحل يوم الرحيل . واغرورقت عينا سسابى بالدموع وهى تودعهم . وفيلسبا الأم فى حنان الأمومة . وذرفت الصغيرتان الدمع وعلا صوتهما بحب . ولا خرجنا لنستقل العربة ، وجدناها مزينة بالزهور وغصون الاسجار الخضراء ، فازددنا تأثرا بمظاهر حب هاتين الفتاتين . وانطلقنا بعيدا عن جنة النعيم ، وأنهيينا بتحيات الوداع ، فترة من حياتنا لم نكن من عمرنا ، اختلسناها من احكام القدر .

الفصل السادس

- ١ -

واضطربنا أن نتخلف بدلى يومين . وكان الطقس حارا حتى خيل البنا ان أبواب الجحيم قد فتحت . وكان الفسدر أراد أن يضاعف من استعد على ترك ما كنا فيه من نعيم ، عندما كنا فى تلك البقعة التى ترتفع عن سطح البحر بحوالى ثمانية آلاف قدم ، فواجهنا بهذين اليومين من أيام السعير ، ونزل بنسا من حالق سماننا الى أعماق الجحيم .

وعدنا الى يوميات لسجد الرياح الموسمية فى عنفوان ذورتها ، فحولت الشوارع أنهارا ، وملاأت الجو رطوبة زادت من وطأة طقسها الحار .

وقصد كل منا الى غرفته بفندقه - وتوجهت الى المدرسة فى الصباح . وكنا قد اتفقنا على أن نتخلف هى يوما آخر حتى لا نترك مجالا للفتن والقال .

وتخرجت في صحة بيتر لتناول طعام الغداء . واخترنا فندق
تاج مكانا يصلح لجنسة هادئة ، نستطيع فيها أن نتحدث حديثا
يطول بقدر ما طالت مدة فراقنا . وبدأ يسرد علي مسامعي ما كان
من أمر ميرفين ومحاولته بشتى الأساليب أن ينزح عن الهند ،
مرة بادعائه المرض ، وأخرى بانهيار أعصابه ، الى أن أودع
المستشفى أخيرا ، وعين معاملة المجانين . ثم أردف قائلا :
- أما عنى ، فقد انتهيت من كتابة قصتي .

وفي المساء بالتفصيل . سمح لي بتصفح القصة ، ووجدت أنها
لم تكن قصة بوليسيه . بل كانت حوادثها تدور حول ما جرى له
أيام كان في جبال انيريشير عند قيام الحرب ، وما كان من محاولته
الهرب الى اسبانيا رغبة بها كما لاحظت أن صفحات الكتاب
تسودها روح شغف رقيقة ، وشعور وطني فياض .

وبينما كنت منهمكة في قراءة القصة ، أقبل فينيوك - وكان
بيتر قد انصرف منذ قليل - وادركت من حالته أن هناك شيئا
يشغل باله ، وأنه كان يحاول أن يظاهر بغير ذلك . ولما وجدتني
لا ألقى اليه بالا ، سسى أن أذهب معه لتناول كأس من الخمس
في مكان ما ، فأنبذت له رغبتي بأننى أفضل أن أستكمل قراءة
القصة ، فالح علي أن أمنحه من وقتي نصف ساعة فقط ، ولما
رفضت مرة أخرى . راح يذرع الغرفة ويتأمل ما بها قطعاً للوقت .
فقلت له أخيراً :

- هات ما عندك . ان لديك ما تود أن تفضي به الى .

- أصبحت في مواقع أننى أرغب فى بحث بعض الأمور معك ،
وكنت أفضل أن يكون هذا فى جلسة يسودها جو من البساطة
ورنين الكؤوس .

- بوسعى أن أصفى إليك الآن بنعس الروح التى كنت نهمد
لها . هات ما عندك .

- انه حديث خاص .

ثم جلس عنى حافة الفراش واستطرد :

• واننى لوائق من انك خير من سيعى ما اقول •
وأطرق قليلا قبل أن يواصل حديثه قائلا :
- قيل لى بأن خير سبيل لتعلم لغة ما هو معاشره امرأة تتقن
هذه اللغة •

• اذا كان هذا صحيحا فلماذا لم تسلك هذا السبيل ؟ •
- انك خير من يعرف السبب فى ذلك •
ونهض على قدميه ونهضت ، وواجه كل منا الآخر فى تحد
كاد ينقلب خصاما وشعرت بالدم يغلى فى عروقى ، واجهدت نفسى
حتى أسيطر على أعصابى وأتحكم فى زمامى وقلت له محتدا :
- وما شأنك أنت بذلك ؟ •

• اننى الضابط الأعلى فى فرقنا الدراسية •
- وهذا لا يعطيك اى حق فى التدخل فى شئون مس وبنى أو
فى شئونى الخاصة •

• وأعرف انكما ذهبتما معا نقضيان شهر العطلة الصيفية •
- فليكن • ليس هذا من شأنك •

• لو لم تكن يابانية لما اعترضت على هذه العلاقة ••
ولم أشعر الا بىدى ترتفع لاهوى بها على وجهه • فحملنى فى
وجهى ولم يحاول أن يرد اللطمه • ولكننى تبينت فى بطرانه كل
علامات الحقد والمرارة والألم ، تم استدار ليترك الغرفة ، وانصرف
والشرر يتطاير من عينيه غضبا •

- ٢ -

وعجبت من تصرفه هذا وازداد عجبى عندما لم يبد منه ما يدل
على انه اتخذ أى اجراء ضدى لاهانتى له ، مع انه كان بوسعه
هذا • وما كان منه عندما سبقنا فى صباح اليوم التالى الا أن قال
لى :

• كوين ، فلنعتبر أن ما حدث فى الليلة الماضية كان لم يكن •
هذا فيما يتعلق بما حدث بينى وبينك ، أما عن الموضوع من ناحيتى

العامة ، فان ضميرى لا يرضى عن اغفاله ؟ ولذلك ، ساتصرف بما يرضى ضميرى رسميا ، أما بشأن ما يمس علاقتنا وشخصى ، فانى متنازل عن حقى •

ـ فليكن • اعتبر أن هذا هو رأيى أيضا •

وكان اليريجادير قد علم بأمر علاقتى بسابى وترقبت نتيجة ذلك بقلق شديد ، وبالذات فيما يختص بسابى ، التى خشيت أن تفقد عملها بسبب اتصافها بى وسيعقب ذلك حتما أن تتبدد سعادتنا ، ويصبح ما كنا نعدده لها ، أحلاما لم تتحقق وقصورا على الرمال لم تلبث أن أزالنها الرباح وبدأت أندم على ما فرط منى •

وأخيرا حلت اللحظة التى كنت أخشاها • ودعيت الى مكتب اليريجادير ، الذى دعانى بأمره للمجلس بمجرد أن حييته • وبعد أن قدم الى لقاعة تبغ ، سألنى عن مدى تقدمى فى تعلم اليابانية ، فقلت له :

ـ اننى راض عن النتيجة منه عامة •

ـ ان هذا الرضا هو أهم ما عني الأمر • الرضا والاقناع بأن ما يتعلمه المرء نافع مفيد • كتب حرف ريجالى فى كامبردج •••

وراح يسرد على مسامعى منه غنية • اقنضت منا الساعة تبغ أخرى • ثم عرج فى حديثه بمرور من العطلة السنوية وكيف قضيتها • فأخبرته بأننى قضيتى فى حى نال مع صديق • ولم يسألنى عن عماله يكون هذا • بل عنى بسؤلى عن الجبال والبحيرة وجمال الطبيعة فى هذا المكان • وبعدها انتقل الى مقامرتى فى بورما وما قام به من ذهاب • وأخيرا قال لى ، متممدا أن ينظاير بأن ملاحظته حرة حث عرضا :

ـ سمعت ساعة تدور على ثلاث خمس وبى ، انها فعلا جميلة • أليس كذلك ؟ لظلمة ربه فى نوى منك ويشاع عنى مثل ما يساع عن الشباب • وبكى فى حايث • ان الأشاعات مبرعان ما يموت وتنتهى •

وكننت أريد أن أقول له « اننى مدله فى حب مس وى » ، حتى لا يكون فى الأمر ما يخفى عليه ، ولكننى قرأت فى عينيه أنه يقول لى ، أعرف كل شيء وفر على نفسك ما تريد الافضاء به . وشعرت بأننى فى حضرة هذا الرجل ، أحس بكل ما فى الإنسانية من خير ، تماما كما أحس بكل ما فيها من شر فى حضرة فينويك .

- ٣ -

وكانت سابى هى التى عثرت على المنزل الذى يصلح عشا لغرامنا . استأجرته من صاحبه بأثائه لمدة ستة أشهر . ولم تسمح لى بدخوله الا بعد أن تتم اعداده ويتم تجهيزه .

وأخطرت روزى صاحبة الفندق الذى أقيم به بعزمى على الانتقال الى سكن خاص بى ، مع احتفاظى شكلا بعنوانى وغرفتى بفندقها . ولما أردت أن أوضح لها الأمر قاطعتنى قائلة :

— لا حاجة بك لأن تشرح لى الأسباب أنا أعرف كل شيء .
اطمئن ، ولن أتناول منك أجرا مقابل احتفاظك بسكنك عندى .

— اذن فلتسمح لى بدعوتك للعشاء من وقت لآخر .

— ستجدين دائما رهن اشارتك .

وبعد أن فرغت سابى من اعداد كل شيء ، انتقلنا بعد ظهر يوم الى عشنا الجديد . واتجهت بنا القارى الى تلال مالابار وفق توجيهات سابى للسائق ، لأننى كنت أجهل كل شيء عن المنزل حتى عنوانه . وتوقفت بنا العربة أخيرا أمام بيت كان كل ما يحيط به يتحدث بجماله وشاعرية موقعه . وخرج باهادور يستقبلنا ويرحب بنا ولم يكن البيت ليقل جمالا من الداخل عنه من الخارج . وتبينت يد سابى ولمساتها فى كل ركن منه . ولاحظت أنها لم تترك شيئا أو تغفل أمرا ، حتى الأزهار بألوانها الزاهية المتنافسة ، كانت فى كل مكان منه ، ووجدتها قد أعدت لى زجاجة من الويسكى فى غرفة الجلوس وما ان احتوتنا الغرفة حتى صبت لى كأسا فعوتها لتشاركنى فيها احتفالا بهذه المناسبة السعيدة ولكنها رفضت

لأنها تخشى أن تفقدها الخمر شعورها الحق بما هي فيه من سعادة
طاغية .

وقضلنا أن نتناول طعام العشاء فى شرفة المنزل . وأخذت
بروعة المنظر الذى وقعت عليه عيناي . لقد رأيت بومباى تمتد
على مدى النظر بأنوارها المتألثة التى تنعكس على صفحة البحر
الذى يحف بشاطئها . وكان الطقس لطيفا والنسيم ليلا يحمل معه
رائحة الزهور . ومن فوقنا السماء نزهو بنجومها صافية لامعة .
وقد اجتمع كل هذا وذاك ، لينقلنى الى عالم من الجمال والحياة
يتفق وما تعتمل به نفسى من مشاعر ، ارتفعت بى الى أعلى مراتب
السعادة والهناء . وتركنتنى بسأبى لتأملاتى ، لأنها كانت تدرك كل
ما يجيش به صدرى . تركنتنى أنعم بكل هذا الجمال فلم تتحدث
بشيء عنه أو تطبق بكلمة واحدة . ان مجرد الكلام ومحاولة التحدث
عن هذا الجمال كان يفسد صورته كما أفسد أنا صورته هنا
بمحاولتى نقل شعورى واحساسى سطورا فوق هذا الورق . انه
أجل من أن يوصف وأسمى من أن يصور .

وخيل الى أن تلك الشرفة ، بهذه المائدة ، بسأبى التى تفيض
عينها سعادة وتشع سرورا ، وبهذه الاطار من الجمال الذى يحيط
بنا ، ما عى الا صورة من صور النعيم الذى يحلم به الانسان ويمنى
النفس بسكناه ، بعد حلول الأجل .

الفصل السابع

- ١ -

وردت برقية من اللورد دورويستون ، بعد أن انتقلنا الى المنزل
بأسبوع وهى كالآتى :

« سأحضر قريبا ، اثنى جد متلهف على رؤياك » .

وعلفت سأبى عليها قائلة :

- سيكون كل شيء على ما يرام ، انه رجل عظيم ، وما أظن إلا انه سيعجب بك .

- ألا يحسن بي أن أعود الى غرفتي بالفندق ؟

- كلا لا حاجة بك لذلك .

وكانت قد دعت مستر سكايف للعشاء . وتظاهرت بأنني مدعو مثله ، وحرصنا في وجوده أن نخفي أمر علاقتنا ، وأن تسود الكلفة بيننا ، حتى لا يشك في شيء .

وبعد أن فرغنا من تناول طعام العشاء وتدخين بعض لفافات من التبغ ، بدأت أضيق ذرعا بهذه السهرة التي كانت متكلفة غير طبيعية ، فقلت بعد أن راجعت ساعتي :

- يحسن بي أن أنصرف ، لأن الوقت بات متأخرا .

ولكن مستر سكايف لم يحرك ساكنا ، ولم نصب حركتي المرمي . فحاولت مجرى الحديث لأجد مبررا للدول عن عزمي . ثم عدت وكررت المحاولة بعد ذلك ، ولكن مستر سكايف طلب كائنا أخرى من الويسكي . وظل ينتقل من حديث الى حديث ، وكلما مرت الدقائق كنا نضيق ذرعا به وبأحاديثه الفلسفية ، حتى نهض أخيرا مودعا سابقي ، وخرجت معه الى الممشى ، ومنه الى الطرقات المؤدية الى منعطف السوق ، وكان لا ينقطع عن الحديث طوال مسيرنا . وأخيرا توقفت عن السير لأمرده قائلا .

- من هنا يبدأ طريقي . هل ستقطع المسافة مشيا الى تل مالابار ؟

- أجل .

قالها في نبرة غامضة بدت لي غير طبيعية ، وتركتها الى السوق حيث قضيت حوالي ربع ساعة أتجول في طرقاته بين حوانيته ومقاهيه ، ثم فقلت راجعا الى المنزل . وما ان اقتربت من بابه حتى أبصرت بشخص يقف بجواره . ثم تبينت عن قرب انه سكايف ، وكنت قد اقتربت منه حتى لم يعد هنسأك مجال لأن أتراجع . فواصلت سيرى حتى أصبحنا وجها لوجه وقلت له :

- لماذا تقف هنا ؟
- فابتسم محدقا النظر في وجهي ولم يجب الا بعد ان أعدت السؤال كلمة كلمة ، فقال لي :
- أودت ان اتحقق بنفسى .
- والآن هل تحققت ؟ .
- كان يجب على الا أسمع بشيء من ذلك .
- ووقفنا يخلق كل منا في وجه الآخر ، الى ان قلت له اخيرا :
- يحسن بك ان تعود الى منزلك .
- هكذا اهذا ما كنت تفعله انت ؟ .
- ان بيتك الجميل اولى بك .

ولم يعقب بشيء . ولم يتحرك من مكانه . ولم يخفض من بصره . واخيرا لم اجد مقرا من ان احببه تحية المساء . وب لم يرد تحيتى ، بركته ودخلت الى المنزل لأجد سابى فى انتظارى وقد قال لي عينيه النعاس :

- ٢ -

بمجرد ان وصل لورد دورويستون الى الهند ، ونزل بفندق التاج بصل بسابى ودعاها لتناول طعام الغداء . وبعد عودتها قالت لي :

- انه يريد ان يقابلك . ياله من رجل لطيف المعشر واسع الأفق ، لقد طلب منى ان ارجوك نيابة عنه ان تقبل دعوته لتناول طعام العشاء غدا .
- هل علم بامر علاقتنا ؟ .
- لقد تحدثت عنك بكل خير .
- ارجو ان يقنعك بقبول الزواج منى .
- لماذا تعود لتلج فى هذا الأمر ؟ قد يكون فى زواجى منك شيء شائق .

- بل انه سيضع الأمور في نصابها ، تلك هي سنة البشر .
- لكم وددت أن تفهمنى على حقيقتى . اننى لا أريد أن أكون
مصدرا لتعاستك وغضب والدك ، لزواجك من يابانية وهى من
جنس آخر .

- الهذا لا تريد أن تتزوجى منى ؟

- انه أحد الأسباب ؟

- وهل هناك من أسباب أخرى ؟

- ميشيل . لقد سبق أن صارحتك برأى . انك لا تفتأ تلج
على بهذا من وقت لآخر فتعكر صفو سعادتنا .

- بل انك أنت التى تعكرين صفو سعادتنا بعنادك واصرارك .
انك تعقدين الأمور وتزيدنها صعوبة .

- لو كنت تحبنى مثل ما أحبك لما قلت شيئا من هذا .

- بل اننى أحبك ولا أطيق التفكير فى البعد عنك .

رأيت اللورد دورويستون قبل أن يحل موعد الغد . . وأبته
مع سكاييف بفندق التاج يصفى الى حديثه باهتمام . وما ان وقع
نظري عليهما وهما فى جلستهما بخانة الفندق ، حتى أدركت لتوى
انهما كانا يتحدثان عنى . ولما القيت بالتحية الى سكاييف ، بمعنى
بنظراته حتى اتخذت مجلسا لى فى ركن هادئ . ولاحظت ان
اللورد دورويستون اختلس نظرة الى فناحيتى . وعجبت من أمر
هؤلاء الناس الذين لا يتركون غيرهم من الخلق ، دون أن يتدخلوا
أقضى شؤونهم الخاصة - من أمثال سكاييف وفينويك - هؤلاء الذين
يتدخلون فيما لا يعنيههم . ومهما يكن من أمر ما يفعلون ، فانهم لم
يستطيعوا أن يفرقوا بينى وبين سابى ، التى أصبحت جزءا من
حياتى بعد أن تطفل حبها فى قلبى ، سابى التى أعادت لنفسى
الثقة بها ، وملاّت على فراغ حياتى .

ولكننى لم أن اثرا لما صورته عند لقائنا باللورد دورويستون
على مائدة العشاء فى اليوم التالى ، كما لاحظت شدة
اهتمامه بسابى وحده عليها حذب الأيب الشفوق العطوف ؟

وشعرت بميل الى الرجل وأعجبت به ، وكان يعاملنى برقة وادبٍ وتقدير ظاهر رفع من روحى المعنوية . كان رجلاً كاملاً بكل معنى الكلمة ، كبسا حاضراً البديهة قوى الشخصية .

وانتهز فرصة خلوته بى ، عندما ذهب سائى لثمن من شئونها فقال لى دون مقدمات :

— انك مغرم بها . اليس كذلك ؟ .

— أجل . .

— هل يسعدك حيك ؟ .

— ألم تلمس ذلك بنفسك ؟ .

— أجل شعرت بهذا فعلاً . أرجو ان تتناول طعام العشاء معى قداً على انفراد .

ولما احطت سائى علماً بكل ما جرى بينى وبينه من حديث سعدت بذلك ورات فيه دليلاً على تفاهمنا ، ولم تمنع فى اجابتى لدموته .

وكانت احظات ممتعة حقاً ، تلك التى قضيتها مع اللورد دورويستون . . ودار الحديث بيننا شيئاً طويلاً . ركبنا نجلس فى الشرفة التى تطل على الميناء . وكانت سائى هى محور حديثنا . وطبت نفساً لأننى وجدت الرجل الذى نفهمنى ونفهمه . وشعرت بأن سعادة الانسان لا تكتمل الا بصداقة حقة يطمئن اليها ويرتاح لها ، ان القلوب المتحاببة المتألفة المجتمعة على اليود الصافى ، هى دعامة من دعائم السعادة حقاً ، وتلك النفوس الراضية المطمئنة ، التى لا تنطوى الا على حب الخير للناس ، ولا تكتوى بنار الحقد والغيرة ، فى عالم عم فيه الفساد واستشرت عوامل الشر ، هى بمثابة حبات من اللؤلؤ نادرة الوجود صعبة المنال .

ثم تطرق بنا الحديث الى المستقبل عندما قلت له :

— كنت أنتظر الفرصة المناسبة لأعلن عن رغبتى فى الزواج من

هاناكو . .

- كنت اعرف انك ستسألنى ذلك ؟

- الا توافق على عرضى ؟

- ليس الموضوع موضوع موافقتى من عدمه . ان مرد ذلك اليها . وهى لا ترغب فى اتمام هذا الزواج حرصا على سعادتك وقد تكون على حق فى قرارها هذا .

- ان الأمر جدير بكل مخاطرة .

- لعل مقتضيات الشهامة هى التى حدث بك لابتداء هذا

العزم .

- كلا . بل هى رغبتى الدفينة .

- لو كنت مكانك لتريثت قليلا . لعل فى ذلك الخير كل الخير

لك .. ولها . انتظر ما ستكشف عنه الأيام ، فقد يستجد من الأمور ما ليس فى الحسبان .

- كنت أطمع فى أن تكون فى صفى .

- ومن ذال لك غير ذلك ؟ أنا معك قلبا وقالبا . وأرجوك الا

تنسى هذا أبدا . اننى فى صفك . بل وأرجو ان نضع كل نفثك فى ، حتى نستطيع ان أركن اليك .

- يمكنك ان تطمئن الى ذلك .

- انك تعلم بأمر وصاينى على هانكو ؟ ولطالما تساءلت عما

إذا كنت قد احسنت صنعا بموافقتى على سفرها الى الهند من

عدمه ، الا أن الأمر لم يكن لينتظر موافقتى ، لقد قررت وصممت

وهى من هذا الطراز الذى لا يمكن بحال ما أن يثنيه شئ عن عزمه

إذا ما قرر وصمم . لقد وافقت لأنه لم يكن هناك معر من ذلك .

وكان معنى هذا أن تعبر المحيطات والقارات وحيدة ، وأن تعيش

كيابانية بين قوم يكرهون اليابانيين ويمقتونهم . وكنت انا الذى

اقترحت عليها أن تسمى باسم صينى ، وقد رفضت فى اول

الأمر الاخذ باقتراحى لأنها كانت راغبة عن التظاهر بغير حقيقتها .

وتشبهت برأى كشرط أساسى لرحيلها والآن وجدت انها لم تعد

وحيدة بعضك وسأسافر مطمئنا الى رعايتك لها .

- ومادا عن مستر سكايڤ ؟

- ان مستر سكايڤ لم يعد صالحا لهذه المأمورية . فقد
- لمست انه تغير فى نواح كثيرة من تفكيره .
- ولكننى لا اعرف مصرى بعد الشهرين الباقيين من المدة
- المحددة لتدريبى بالفرقة الدراسية .
- لنترك الظروف التى ليس لنا سلطان عليها . ولنحدد
- اتفاقنا فيما نحن بصدده . ان كل ما اطلبه منك أن تبذل أقصى
- ما فى وسعك لرعايتها والسهر عليها .
- انه لأمر يتفق مع شعورى فعلا . وثق انك لا تطلب منى
- ما يشق على نفسى .
- من بدرى ؟ . ربما صادفك ظروف عسيرة شاقة .
- ان حبى لها كفىل بتدليل كل الصعاب .
- أجل . اعرف انك تحبها . ولذلك ترائى واثقنا من اننى
- اعهد بها الى يد حانية رحيمة .

الفصل الثامن

- ٩ -

طلب البريجادير من المدرسين أن يرفعوا اليه تقاريرهم عن حالة كل طالب على حدة وكان ذلك فى أواخر شهر أكتوبر . . . وسألتنى سابى أن أساعدها فى ذلك . وجلسنا فى الشرفة نعد التقارير المطلوبة منها وكانت قد انفردت بكتابة التقرير الخاص بى فلما راجعته وجدت انها اطنبت فى تقديرى ، اللهم الا فيما يختص بطريقة نطقى ولهجتها . . فاستفسرت منها عما اذا كانت ستقدم هذا التقرير عنى كما هو ، فأكدت لى بانها لن تغير منه شيئا ، بل وانها ستضيف اليه اننى احسن طلبة فصلها الدراسى ، وكانت

معظم التقارير من درجة «جيد» و «جيد جدا» أما تقرير فينويك فكان «دون المتوسط» وقد قالت لى تعليقاً على ذلك :

— انه يدعى .. ومن يدعى العلم فلن يناله أبدا .

وقد تمت التقارير من جميع المدرسين . وعقد لنا اختبار شفوي من لجنة مؤلفة من البريجادير واثنين من الضباط حضرا من دلهي . واستمر الامتحان بضعة أيام ، كنا ننقل فيها من حجرة الى حجرة . وبين مدرس الى آخر ، وأعلنت النتيجة وكان ترتيبى الثانى . واحتفلت بعد ذلك باعلان النتيجة ، ولم يتخلف عن الحفل أحد من الطلبة ، حتى ميرفين كان قد استطاع أخيراً ان يقنع الأطباء المعالجين باطلاق سراحه والموافقة على سفره الى انجلترا .. واشتركت سابتى فى انحفل مع جميع زملائها من المدرسين ، بما فى ذلك البريجادير نفسه .

وشربنا نخب الملك . ثم نخب البريجادير بناء على اقتراح فينويك . ثم وقف البريجادير بيننا خطيباً ، وتوجه بتحيته للأساندة والطلبة ، وقدر لسابتى تعاونها وتحملها مشاق السفر من انجلترا الى الهند ، وهى اليابانية ، الأمر الذى ضاعف مما قامت به وأظهر حقيقة مايتصف به شعبها الذى اضطررنا لدخول الحرب ضده .

ثم تحول الحفل من الجد الى ناحيته المرحية ، ونهض بيترو ليعلن خطبة دوركاس الى ماريو ، وقام آخر ليعلن خطبة لامب وساندرام . وضح الحاضرون بالتصفيق والتهنئة لمن أسعدهم الحظ بهذا الرباط الوثيق . وكان ميرفين مرحاً ، سعيداً بقرب عودته الى الوطن ، وكان كل حديثه عن بلدته تشيلى ، وعن أنه سيدكرنا فى لياليه الحمراء ، بين الحانات والتوادي الليلية . ورثى لحالنا وتسأل عن المكان الذى سنكون به فى هذا الوقت . فقلت له :

— وراء الخطوط فى بورما .

— هذا ما اتوقعه لكم .

— ولهذا ودعوك مستشفى الجاذيب .

- وأنت ستعود الى بورما حيث تقتل هذه المرة . لقد نجوت من قبل ، ولكك لن تنجو هذه المرة .

- هراء . ان رجال المخابرات الحربية مكابهم خلف خطوط القتال .

- ان الأدغال لا تعرف خطوطا للقتال . فهناك الملايا وغيرها من الأمراض ووابل الرصاص من حيث لا تدرون .

- ان انتصار بلادنا وكسبها للحرب يساوى كل هذا الغناء .

- مرحى . مرحى . بالبطل الصنديد . لقد أدت واجبي ثلاثة أعوام حوال . وقد آن لى أن أستريح ..

وعندما وافت الساعة الحادية عشرة ، انصرفنا - سابى وأنا - لنستقل احدى عربات الفارى الى منزلنا .. وكان الطقس يديما لطيفا والسما صافية تزهو بنجومها ، والحياة من حولنا باسمه تجود علينا بأحلى ساعات العمر .

واوينا الى عشنا الجميل الهادى ، وجلسنا فى الشرفة نستكمل تمتعنا بهذه الامسية الجميلة ، وننعم بمنظر يومباى تحت أقدامنا نتلألاً بأوارها المنعكسة على سطح مياه المحيط .

وسمعتها تنزل لى ، وهى تستند برأسها على كنفى :

- ميشيل . لا أريد ان أعود للتدريس بعد رحيلك .

- وماذا تنوين أن تفعلى ؟.

- لعلك لم تعلم بأمر الرسالة التى وردت لى من اذاعة دايى صباح اليوم .

- كلا .. وما هو فحواها ؟ .

- يعرضون بها على عملا فى الاذاعة . وهو ن اقرب بعراة نشرة الأخبار باليابانية .

- اذا كنت ترغبين فى ذلك فلا بأس .

- اننى لن استطيع ان امشى فى بومباى بعد رحيلك عنها .
- كما اننى لن اكون فى دلهى .

- ولكننا كنا معا فى بومباى وكل ركن فيها سجدتلى عنك
وعن ايماننا معا . اما فى دلهى فالامر يختلف .

- اذن فسترحلين عن بومباى ، وستتركين هذا البيت ؟

- اجل . وستأتى لترانى فى دلهى .

- وهل فى ذلك من شك ؟

- احقا ما تقول ؟

- بكل تأكيد . ما الذى يدور بخلدك ؟

- يدور بخلدى انك قد نسيت سائى . تنساها وتشكر الظروف
التي باعدت بينك وبينها .

- اوحقا تظنين ذلك ؟

- لست ادري . . خبرنى يا ميشيل ترى الى متى سنظل
مقيما على حبك لى ؟ هل نظن ان ستة اشهر اخرى ستكون فترة
طويلة ؟ ارجو ان تصارحنى بذلك .

- ما هذا الذى تقولين ؟ اننى حتى لو اردت الانفصال عنك
فلن استطيعه . . لقد اصبحت جزءا متما لحياتى .

- شكرا . شكرا . لكم يطيب لى ان اسمع منك ذلك . .
لئن كنت جزءا متما لحياتك ، فانك بالنسبة لى الحياة كلها . .
ولئن كنت قد قلت ما قلته لك ، فقد اردت به أن يضمن لى هذه
الحياة طالت أو قصرت ، وان اسمعك تصارحنى به فأنتشى
وأسعد .

واضطجعت فى مقعدها وأغمضت عينيها ، واستسلمت لتراخى
الكسل . . وأطلقت لوجدانها العنان لتصبح فى اجواء من
السعادة والرضا ، وتعلو على سحب من الهناء والدعة ، حتى خلتها
فى النهاية قد استسلمت لنوم عميق .

وسمعت من بعد صوت الطبول ، يسرى مع سكون الليل قويا
متواصلا ، يرن صدها ، فى الغرفة بفغمة البدائي الرتيب ، فيبعث
فى النفس الانقباض ، ويدوى بترجيعة الموحش الحزين وأدركت
أن سابى كانت على حق عندما قالت لى أنها تفزع من هذه الطبول
لما تشيعه فى نفسها من رهبة الموت ، ومن شعور بانقضاء الحياة
ونهايتها .

ونهضت لأطفىء النور ، وتأملت وجهها الجميل وأهدأها التى
بظلال عينيها ، فلاحظت حبات من الدمع تنساب من بين جفونها
على وجنتيها ، وتجرى فى تسلسل حتى تنحدر الى جيدها العاجى
الجميل . ووقفت فى مكانى أتأمل هذا الجمال النائم الباكى فى
هدوء واستسلام وديع .

الكتاب الثالث

الفصل الأول

- ١ -

وحلنا عن بومباى فى شهر ديسمبر . وزودتنا قبادتنا بتذاكر السفر الى كونبور ، دون ان تعطينا اية فكره عن رجعتنا بعد ذلك . وقضينا الليل بالقطار المتجه شمالا ، ووصلنا كونبور فى الصباح ، ثم قصدنا مطعم المحطة لنحتسى بعض افداح من القهوة ، ربشما يتصل فينيوك بالجهات المسئولة فى طلب سيارة نقلنا الى حيث لم نكن نعلم .

وقفزنا الى السيارة ، كل بمتاعه ، ثم انطلقت بنا الى الخلاه وبعد مسيره نصف ساعه ، توقفت بنا امام اسوار احدى القلاع ، وهى قلعه من قلاع المغول القديمة الضخمه ، التى كانت تضم بين جدرانها مدينه بأسرها . وكانت جدران القلعه ومناهبها متينه بحيث صمدت لعوامل الزمن طوال هذه القرون على مر الحقب .

عند الاسلاك الشائكة المعقوده على مدخلها العريض الضخم اعترض طريقنا الحرس المسلح ، ولحقت فى الداخل عن بعد احد اليابانيين الأسرى فى حراسه الجندى المكلف به . وبعد ان سمح لنا بالدخول ، دعيانا لمقابله الميجور الذى قال لنا :

« وأخيرا وصلتكم . انكم الآن فى معسكر للمعتقلين من أسرى العدو . ستمكثون بيننا قليلا لتلقى بعض التعليمات ، ثم تنطلقون للقيام بما يعهد به اليكم من أعمال » .

وبعد أن استمع الميجور للكثير من أسئلتنا ، تركنا ننصرف الى « الميس » لتناول طعام الغداء ومنه الى الثكنات المعدة لنا ، وكانت الثكنات قريبة من البناء المودع به الأسرى . حتى خيل إلينا أننا لا نفرق عنهم فى وضعنا ، هم فى سجون ونحن فى سجون ! .

واشتركت مع بيتر فى سكن واحد ، وعينا لنا « مراسلة » بدلا من باهادور - الذى كنت قد تركته مع سابى - وقمت بعد الظهر بجولة لتفقد المعتقل ومررت اول ما مررت بمعسكرات الأسرى وعندما دخلت غرفة السجن الأولى ، نهض الجندي اليابانى الأسير ووقف وقفة انتباه فألقيت إليه بالتحية التى ردها بحسن منها . ثم سألته :

- ما اسمك ؟ .

- ياما ناكا .

- وربتك .

- رقيب أول .

- اجلس .

فصدع بما أمرته به . وواصلت أسئلتى :

- أين تم اعتقالك ؟ .

- فى أراكان .

- فى أى ظروف كان ذلك ؟ .

- كنت قد ضللت الطريق الى وحدتى وتمت بالغابة . فلما

استيقظت من نومي ، وجدتني وجها لوجه مع غواتكم . وحاولت أن انتحر ، ولكنهم لم يمكنوني من ذلك .

- ولماذا كنت تزمع الانتحار ؟ .

- لأنه من العار أن يقع يابانى فى الأسر .

- وهل مستعود الى اليابان بعد انتهاء الحرب ؟ .

- اذا عدت الى بلادى قضى علم بالموت ، ان الأسرى لا يجب

ان يعودوا .

- وأسرته ؟ .
- سنتلقى رماذ جثمانى . اننى مقضى على بالهلاك .
- الا تحلم بالعودة الى منزلك ؟ .
- وماذا تجدى الأحلام ؟ .

وتركته لاستعرض الأسير الثانى . ووجدته يقرأ ويدخن ونهض بمجرد ان وقع نظره على وحيانى ، ووجهت اليه نفس الأسئلة وكانت ردوده مطابقة لردود زميله الأول . وهكذا وجدت جميع الأسرى صوراً متطابقة لا اختلاف بينها .

وجلست مع بيتر فى احدى الأمسيات ، نستعرض ما ضينا القريب فى بومباى وحاضرنا فى هذه القلعة ومستقبلنا الذى لا نعرف عنه شيئاً ، ثم رحنا نتبادل الأمانى ، اذا ما قدر لنا ان ننجو من وبيلات هذه الحرب ونعود الى بلادنا لنعيش بين افراد أسرتنا . وجبنا فى آفاق من أحلام اليقظة عن المستقبل ، وعرجت فى الحديث على ما أرجوه لسابى ولى من حياة زوجية هادئة فى موطن راسى . فقال لى بيتر :

- أرى انكما اعددتما للمستقبل عدته ؟ .
- هذا من ناحيتى فقط . أما سابى فلا .
- كيف تقول هذا ؟ . هل رفضت عرضك ؟ .
- أكثر من مرة .
- وماذا تراك فاعله ؟ .

- لست أدري انها ترفض الخوض فى أى حديث عن المستقبل . لقد سألتنى والحت فى الرجاء الا افكر فيما هو آت .

- ٢ -

صعدت بقاء سابى ثلاث مرات خلال شهرى يناير وفبراير . وكانت قد رحلت عن بومباى الى دلهى لتسلم عملها الجديد

بالإذاعة . ولم تكن دلهى لتبعد عن كونبور بأكثر من ثلثمائة ميل
تقريبا ، كنت أقطعها فى عشر ساعات بالقطار .

وكانت تعيش فى فندق بحى دلهى القديمة . أما عملها فكان
فى نيودلهى . وكانت راضية عن عملها سعيدة به . وعندما كنت
أسافر لزيارتها . كنت أجلس لأستمع الى صوتها وهى تذيع
الأخبار باليابانية . ولم يتبين لى منها أنها تدرك خطورة ما تقوم
به من عمل ، وبالذات بعد ما تنتهى الحرب . ولما حدثتها فى
ذلك قالت لى :

— لم يعد يعينى من هذه الحياة الا قربك منى وحبك لى .

فقلت لها مطمئنا :

— سأعود اليك بعد بضعة أسابيع

— ان الأيام تمر ثقيلة طويلة . وهذه الأسابيع القليلة ستكون
عندى قرونا لطالما حاولت أن أحصر تلك الشهور التى عشناها
معا . أنها لم تكن شهورا ولا أياما ، ان هى الا لحظات من العمر
مرت سريعة خاطفة ، ليس فيها من معيار الزمن أية صفة أو توقيتا
ورفعت عينها الى لتعبر بهما عما يختلج فى نفسها فقلت لها :

— دعينا من ذلك فاليوم لنا . . اليس هذا هو رأيك ؟ .

وقمت اضمها بين ذراعى وأقبلها . وطمانتها اننى لن اذهب
الى الجبهة قبل شهر مايو . وهكذا سنظل نتمتع بساعات لقائنا
الخاطفة .

وحدث بعد ذلك ما لم يكن فى الحسبان ، او كما يقولون :

تقدرون فتضحك الأقدار . اذ صدرت الأوامر الى بالسفر الى امبال
فى اول مارس ، فى مامورية تستغرق حتى شهر سبتمبر ، ولم
أستطع أن أتوجه لزيارة سابى قبل رحيلى لضيق الوقت . كما لم
أستطع الاتصال بها تليفونيا . وكنت فى حيرة من امرى ، وفى حالة
لا أحسد عليها ، وأشار على بيتر بإرسال برقية لها لتقابلنى فى

أجرا .. وقام عني بتنفيذ ذلك لأننى كنت مشغولا بالاستعداد
للسفر .

وتحرك بى القطار فى تمام الساعة الواحدة بعد الظهر ، ووصل
الى محطة أجرا فى الساعة . وقصدت من فورى الى فندق
سيسل وحجزت غرفة به . ثم جلست أقطع الوقت فى الشرايح
حتى تحل الساعة الثامنة والنصف موعد وصول قطار دلهى الى
المحطة .

وكننت بالمحطة قبل الموعد المحدد بربع ساعة . واقبل القطار
أخيرا يتهادى . ثم بدأ المسافرون يتركونه . ورحت أبحث بينهم
عن سابى . وكنت أئس من حضورها ، حتى أبصرت بها واقفة
بباب احدى العربات تلوح لى يدها مبتسمة سعيدة فرحة .

وعدنا الى الفندق فى احدى عربات التونجا ، وكنت سعيدا
بهذا اللقاء الذى دبره لنا القدر ، بعد ما كنت يائسا من تحقيقه ،
لقد هيا القدر امر تقائنا . وهيا معه الهام بيتر بارسال هذه البرقية
التي مهدت لهذا اللقاء فى أجرا ، وعند ما تربد الأقدار أمرا ، تدبر
له حتى تبلغ ما نريده ، فقد جعلت السماء ، لكل شئ قدرا .

واقترحت عليها ان نتوجه بعد العشاء لمشاهدة مقبرة تاج محل
فى ضوء القمر . فاستفشرت منى عن هذا الأثر وماذا عساه ان
يكون ، وشرحت لها حقيقة أمره وسبب اقامته ، « انه تسجيل
لقصة حب خالد لا يموت » .

وامام هذا الأثر الخالد ، وقفنا مأخوذين بروعته ، روعة المرمم
الأبيض اللامع ، ينعكس عليه ضوء القمر فيبدو كالثلج المصقول
بهاء ، روعة انهن الدقيقى يعلو بمآذنه ودرجاته ، فيكاد يبلغ بك الى
أجواز الفضاء حلما وخيالا .. قالت لى :

- ابقعة من الأرض هذه ، ام قطعة من السماء ؟ . هل نحن
فى حلم ، معا . نرى ونتمتع بكل هذا الجمال ، أم هى الحقيقة جعل
منها ضوء القمر خيالا ؟ . لكم أود ان أموت الآن ! .

- منأبى .. ماذا تقولين ؟ . ان هى الا البداية .
 - كلا .. انها النهاية .. اننى لا اخشى الموت يا حبيبى ؟
 لا اخشاه بعد ان شربت كأس السعادة من يدك .
 - لا يجب ان تتحدثنى كذلك مرة أخرى .
 ولكنها الحقيقة سواء تحدثت بها أم لم أحدث بها .
 - ولكننا ما كدنا نبدأ حياتنا معا .
 - كلا .. انها بداية النهاية .. الست راعيا الى ميدان القتال ؟ .

- ان عملى لن يكون فى الجبهة .
 - مهما يكن من أمر طبيعة عملك .. فأنت راحل بعدا عنى .
 - اننى عائد بعد ستة أشهر ، وسنستأنف حياتنا معا .
 - تماما يا عزيزى .. تماما .
 - انك لا تقولينها بلهجة الوائق المقتنع .
 - تأمل معى القمر بإبتسامته الساخرة .
 - اننى أراه فى دمك الجارى .
 - انه يسخر منا نحن البشر .. يسخر منا نحننا نسي انفسنا ونعلمن اطمئنان الخالدين .
 - اننى ألمح بوادر الحزن الذى تفيض به عيشتى فى هذه الدموع .

- لن ترى منى ذلك مرة أخرى .
 ومستقلين عن افكارك القائمة هذه ، ونفكرى معى فى عطلتنا القادمة ، التى سنقضيهما معا فى جالى تال ؟ .
 - أعدك بهذا .
 وانصرفنا لنبحث عن عربة التونجا لتعود بنا الى الفندق .

الفصل الثاني

- ١ -

جلسنت سابى الى منضدة زينتها أمام المرأة ، وجلسنت اقراص
اقى كتاب ، ولاحظت. من طرف خفى ، انها تركز بمرفقيها على
المنضدة وقد اكتسى وجهها بخبجات من الألم الشديد . وما أن رأت
اقى المرأة اننى اتأملها ، حتى جاهدت لتستعيد حالتها الطبيعية ،
ثم راحت تستكمل زينتها ، فلم أجد بدا من سؤالها :

— ماذا بك ؟ »

— لا شيء . . صداع خفيف .

— عليك بقرص من الاسبرين .

— الى بواحد او بانشين .

ونهضت ، واتيتها بقرصين وكوب من الماء . فابتسمت معتذرة
وهى تقول :

— اننى أجد أسفة يا ميشيل . ما كنت أود أن اضايك بالامى .

وفى طريقى الى مقعدى ، رايتها فى المرأة وقد تناولت خلسة
بعض اقراص اخرى لم اتبين عددها . فعصت اليها وامسكت
بالزجاجة ، فوجدت انه لم يبق بها الا قرص واحد ، مع اننى كنت
أقد تركتها امامها وبها خمسة اقراص . . فلما سألنها عن ذلك
حاولت أن تراوغ فى الإجابة أول الأمر ، ثم اضطرت امام الحاحى
أن تعترف بانها ابتلعت الأقراص الأربعة ؟ وعللت ذلك برغبتها فى
القضاء على آلامها فى اقصر وقت ممكن حتى لا تفسد سهرتنا التى
لم يبق منها الا ساعات قليلة .

فقلت لها :

- ستة اقراص : : : . هذا تير .
- لا تخف . . ليست هذه أول مرة .

ولكننى لاحظت بالرغم من كل هذه المحاولات أنها تغالب
آلامها ، وأنها تحاول أن تصرفنى عن الإلحاح فى الاستفسار منها
عن مصدر هذا الصداع ، الذى يعاودها من حين لآخر . ووضعت
حدا لذلك بأن نهضت وطوقت عنقى بذراعيها واستكنتنى بقبلة
طويلة .

كان الموعد المحدد لقيام القطار الذى سيقلى الى امبال ، قبل
الموعد المحدد لقيام قطارها الى دلهى . فصحبتنى الى المحطة ،
ووقفت تتحدث الى حديثا عاديا لتملأ به فراغ تلك الدقائق الثقيلة
الوطأة على نفسينا . وابتاعت لى نموذجا مصفرا للتاج ، وعدتها
أن احتفظ به ، حتى أودعه منزلنا بعد أول لقاء لنا عقب هذا الفراق
الذى سيطول أمده ستة أشهر فى حساب الزمن ، وستة قرون
فى حسابنا . وأخيرا تحرك القطار ليأخذنى بعيدا عنها ، ووقفت
على رصيف المحطة تلوح لى بيدها ، وظللت أتابعها بعينى حتى لم
أعد أرى من طيفها شيئا .

- ٢ -

كان زميلى بالقطار يدعى الكابتن ماننج . وكان من قوات
المشاة المسافرة الى جبهة القتال فى امبال . وتوطدت العلاقة بينى
وبينه كما يحدث دائما بين المسافرين فى مقصورة واحدة .

وكان علينا أن نترك القطار فى دومبرى لنستقل باخرة تنقلنا
الى براهما بوترا . ووقفت مع زميلى فى الرحلة نحسب الويسكى
ونتأمل مياة النهر المحملة بالقرين ونتطلع الى القمر وهو يتخذ
طريقه فوق الأفق باهتا مصفرا الوجه .

ولعبت الخمر برعوسنا ، وبدانا نكتشف عما فى قلوبنا ،
فأخبرته بما بينى وبين سابى ، وأخبرنى بما كان بينه وبين خطيبته

- ١٠٧ -

الانجليزية التى فسخ خطوبته لها بسبب سوء حالته المالية فى عام ١٩٣٤ .

وتحدثنا كثيرا . وراح كل منا يزيع عن صدره ما كان يتقل عليه من مشاعر وذكريات . وصفا الجو بنسيمه العليل ، وعلا القمر بضوئه الفضى البديع . وخلوت الى نفسى وانا اتطلع الى مياه النهر المتلاطمة على جدار الباخرة . وتواردت على خاطرى شتى الصور والذكريات ، ورايتنى استعيد لنفسى جلستى فى حضرة لا لافيكرانا . ثم انتقل فجأة الى مستر هيدلى وروزى ، ومنه الى لورد دورويستون وألبريچادير . ومنه الى بيتر وماريو ، ثم الى الكاتبين ماننج ، هذا الذى يقف الى جانبى ، ووددت لو اجتمع كل هؤلاء على ظهر الباخرة معى . انهم عالمى الجديد .

وهبطت بعد قليل من حالق خيالى الى عالم الواقع . الواقع الذى ينتلنى الآن فوق سطح هذا النهر الى براهما بوتراثم الى امبال . الى هذا المصير المجهول ، والى ماقدر لى فى سجل الغيب .

وقضيت الليل فوق سطح الباخرة ، حيث استسلمت للنوم فى فراشى الذى اتيت به من مقصورتى . وقضينا نهار اليوم التالى نمخر عباب النهر : بين اقداح القهوة وشطائر اللحم .

وتركنا الباخرة اخيرا فى مساء اليوم نفسه الى قطار نقلنا الى ديمابور ، حيث انتظرنا احدى السيارات التى نستقلها الى امبال الى هذا السهل الضيق الواقع بين الهند وبورما .

وتخلفنا فى هذه المدينة يومين ، وعلمنا ان اليابانيين كانوا على مسافة مائة ميل او تزيد على طريق تيديم من امبال . وتلقيت رسالتين فى اليوم التالى . احدهما من سابى ، تفيض رقة وحبا وتزخر بذكريات سعادتنا والايام الجميلة التى قضيناها معا ، وتدمونى فيها للتجمل بالصبر والرجاء . وكان قد خيل الى انها الى جوارى تهمس بهذه الكلمات فى اذنى . . اما الرسالة الثانية فقد حولت الى من بومباى ومنها الى كونيور ثم الى مقرى الحالى وكانت من مرجريت وجينيفر :

العم العزيز ميشيل ، ترددنا كثيرا قبل الكتابة اليك . وكان سبب ترددنا هذا هو والدتنا التي كان من رايها « ان ليس هناك ما يدعو الى ازعاجك بما سنفضي به اليك » . غير اننا عقدنا العزم اخيرا حرصا منا على صحة العزيزة سابي ، التي قد تضطرك الظروف للبعد عنها ، والتي لن تخبرك بحقيقة مرضها ، لأنها هي الأخرى لا تريد ان تكون مبعثا للقلق ، على أنك يجب ان تعرف الحقيقة دون موارد ، حتى تستطيع ان تكون عوناً لها . وحتى لا تفاجأ بالحقيقة المؤلمة في يوم ما . ونستحلفك بكل عزيز لديك الا تخبر سابي باننا كتبنا لك ، كما اننا لم نخبر والدتنا بهذا .

لقد رايانا انه بحسن احاطتك علما بالامر حتى تتخذ له عدته اننا نعرف أنك رجل . كما يجب ان تعرف اننا نملك وسابي من نفسينا في امر مكان .

مرجريت وجنيفر

وشعرت بالحياة تكاد ان تتسرب من اوصالي ، وخارت قواي حتى انني كنت أثقل قدمي ثقيلة بكل عناء . وعلى فراشي بالمسكن القيت نفسي لا كاد ان اعي مما حسولي شيئا . وسمعت ماننج يقول لي :

- ماذا لك بحق السماء ؟

- حتى الكلمات لم يقدر لسانى ان ينطق بها .

- هل استدعى لك طبيباً ؟

- كلا . نست بحاجة الى طبيب .

ولما بصرت بالرسالتين في يدي ، سألني :

- اخبار سيئة ؟

- سيئة جدا .

اذن فقد كنت انا آخر من يعلم . انا من كان يجب ان يعلم قبل غيره . كيف اغتفر لنفسى هذا ؟ لقد أعمتني سعادتي عن كل ما عداها ، فلم يكن يعنيني الا هناء تلك الساعات التي نقضيها معا وحجبت عني برقتها وجمالها كل شيء آخر . ما أشد غفلي !! اما كان يجدر بي ان احاول النفاذ الى أعماق نفسها متجردا عن

انانيتى . لقد ضربت أبى باخفائها الأمر عنى أدوع مثل للتضحية .
ان الأمر لم يخف على الفتاتين الصغيرتين . لقد اكتشفتا فى شهر
ما لم اكتشفه انا فى عام طويل .

وبدأت اقلب الأمر على كل وجوهه . واستعيد لنفسى ما كانت
تقوله لى أحيانا : « هل نظن أنك تستطيع أن تقم على حصى ستة
أشهر أخرى ؟ » . انها رفضت عرضى المتكرر بالزواج منها . ثم
استمررت حديث اللورد دورويستون الخاص معى . وانتقلت الى
حديثها عن الموت عندما كنا نزور تاج محل ، والى تلك الليلة التى
أبعلت فيها ستة أقراص من الإسبرين دفعة واحدة ، وكانت تحاول
أن تخفى آلامها عنى . أى آلام تلك التى بعثت فى نفسها هذا
اليأس من طول الاجل ؟ . وهانذا لا حول ولا قوة لى ، تفصلنى
عنيا آلاف الاميال ، فلا أستطيع أن أكون الى جانبها . سابى
العزرة الصغيرة وحيدة بين قوم غرباء عنها ، والشخص الوحيد
الذى كان يجب أن يكون الى جانبها فى طريقه الى حومة الوغى ؟
لا يستطيع فكرا من قيوده .

ولم هدأت نفسى قليلا بعد أن أفقت من أثر الصدمة ،
واسلمت أن أفكر فى هدوء وروية ، قررت أن ابعث ببرقية الى
مارجريت وجنيفر ، أرجوهما فيها أن نكرنا على اتصال سابى
للأذهئتان على أحوالهما وصحتها . وشعرت براحة نسبية لأننى قمت
بأقصى ما أستطيعه . ثم بحثت حتى اهدت لشخص لديه راديو ،
يمكننى به أن أستمع الى صوتها عندما تذيع نشرة الأخبار .

وتوجهت الى المنزل المعين ، وقابلنى صاحبه الميجور كورسلى .
بعد أن سألتنى عن حاجتى ، دعانى للدخول ، ولكنه لم يستطع أن
يخفى دهشته مما سمعه منى . وفى غرفة الجلوس وجدت جهازا
الراديو ، الذى قمت من فوري بتثبيت مؤشره عند المحطة التى
تذيع منها سابى . وأعلن المذيع باللغة الانجليزية « هنا اذاعة دلهى »
ستمسمعون فى الربع ساعة التالى الى نشرة الأخبار باللغة
اليابانية » . وتلت ذلك فترة صمت . وأرهفت السمع وسمعت
دقات قلبى فى أذنى . ثم انطلق صوت سابى يقرأ نشرة الأخبار
باليابانية . اذن هى بخير وليست مريضة .

ومهما حاولت هنا أن أصف شعوري ؟ عندما سمعت صوتها
ينبعث من الجهاز الذي تلقاه عبر الأثير فنقل إلى اذني وسرى منها
في كل ذرة من ذرات جسدي ، فأعاد له الحياة ولنفسى الأمل ؟
فاني لن أستطيع ذلك مهما أوتيت من بلاغة وبيان . ان الاحساس
والشعور كتيار الكهرباء غير المنظور لا يمس ولا يرى ، او كالريح
لا قبض لها .

وبعد ان انتهت الفترة المحددة لاذاعتها ، اضطجعت في مقعدي
وكانني أريد أن أهجع للراحة بعد طول ما عانيت من قلق وغنى .
وكان الميجور يراقبني ، فسألني أخيراً :
- هل تتقن اللغة اليابانية ؟
- انها عملي الاساسي هنا .

ودعاني لتناول قُدح من الشاي . وعرفت منه انه من يوركشير
وانه في مهمة هو الآخر الى اميسال ، وعرض علي أن أصحبه في
سيارته . فلما اعتذرت بأن لي زميلاً آخر هو ماننج ، اجاب بن
هناك مكانا له هو الآخر . وودعته شاكرًا له ما اتاحه لي وما عرضه
علي . وعرجت في طريقي على مكتب التلغراف لأبعث ببرقية الى
سابي ، ضمنيتها شعوري عند سماعي لصوتها على أمواج الأثير .

الفصل الثالث

- ١ -

كنا اربعة بالسيارة ، بما في ذلك سائقها . واندفعت مسرعة
بنا في طريق ممهد لتلحق بالسيارات الأخرى التي سبقتنا في القيام .
وكننت اجلس بجوار السائق ، وجلس كل من الميجور وماننج
في المقعد الخلفي . وسرد السائق علي مسامعي مفاعرته في المالايا
ضد اليابانيين ، وكشف عن مقتته الشديد لهم . أما الميجور وماننج
فكانا يتجادلان اطراف الحديث عن ذكرياتهما في ايجلنرا .

واستغرق منا بلوغ كوهيما ساعة ونصف • وكانت تعلو عن سطح البحر بحوالى خمسة آلاف قدم فوق جبال ناجا • وكان الجو لطيفا والطقس جميلا ، بالرغم من أن الساعة كانت قد جاوزت العاشرة والنصف صباحا • وملأت صدرى بنفحات التسييم السجسج الذى كان قريب الشبه بتسييم الربيع فى إنجلترا •

وكانت كوهيما تعج بالقوات المقاتلة وبكل ما يبعث فى النفس السعور بأننا فى حالة حرب فعلا • ولاحظت أن الضباط والجنود فى حالة معنوية مرتفعة • وشاهدنا البعض منهم عابس الوجسه والبعض الآخر يضحك ، وهم جميعا بملابس الميدان المعدة للقتال بين الأحرار والأدغال • وسمعت الميجور يقول ونحن نمر بسيارتنا بين صفوفهم :

- من حسن حظ بلادنا أن يكون أبنائها كذك ، منحلين بهذه الروح المعنوية العالية

وعندما بلغنا هضبة المرتفع ، اتسع المنظر الجميل أمامنا فأخذنا بروعه وحسن بهائه • فالى اليمين ترتفع الجبال سامحة فى تسلسل الى جهة الجنوب • والى اليسار تتعاقب أدغال الهند بوزما محتلطة ممتزجة فى غير فاصل بينها • وسمعت مائنج يقول مأخوذا بكل ذلك الجمال :

- لو كنت من هؤلاء الناس الذين يعينهم أين يسعون • لتمنيت أن أتخذ لى لعدا هنا

ونركنا السيارة التى توقفت بنا امام « استراحة » المعسكر وجلسنا نرتشف أقداح الشاي ونملى نظارنا من المنظر الممتد أمامنا ، ونشغل أنفسنا بمتابعة حركة المعسكر بسياراته ومدافعه وقرقه المصدرة •

ونهضنا لنستأنف رحلتنا ، فى طريق ضيق على حافة الهاوية ، وانطلق السائق بالسيارة فى طريق ملتو كثير المنعطفات • وأخرجت رسالة سابى من جيبى ورحت أعيد تلاوتها وأستعيد جملها الصريحة البسيطة ، التى جرت على الورق لتعبر عما فى قلبها مباشرة دون

تتميق أوتصنع • وكنت أرى بين السطور طيفها العزيز ، واستشف
من كلماتها روحها الحلوة • ثم أخرجت رسالة مرجريت وجنيفر ،
وأعدت تلاوتها فقرة فقرة محاولا أن أخفف من وقعها عني • وانتهيت
من مراجعتي لسطورها الا أنها رسالة طبيعية فاضت بمعانيها مشاعر
فتاتين صغيرتين لا يعمر قلبيهما الا الحب والود الصافي • انهما
أحسنتا صنعا بما كان منهما بالرغم من معارضة والديهما لهما •
وعدت بذاكرتي الى أول ليلة لنا بمنزلنا على مشارف بومباي •
حين سمعنا دق الطبول التي بعثت في نفس الانقباض ، وكنت قد
غالطت نفسي حتى لا أفسد سعادتي ، وتذكرت كيف كانت ساببي
تنقبض نفسها لمجرد سماعها •

وقطع على حبيل تأملاتي وقوف السيارة عني حين غرة منا
جميعا • وتعلقت أبصارنا بالطريق أمامنا لتنبين السبب في هذه
الحركة المفاجئة • فرأينا في عرضه جذع شجرة تحيط به بعض
الفصوص • واستقرت أنظارنا على الشجرة وجال حيطنا ما يمكن
أن نعلل به هذه الظاهرة • ولما شرع السائق في تزييلها
من الطريق ، أمره الميجور بالترتب • وراح يمين النظر ، فأدركنا
أنه يبحث عن منبت هذه الشجرة ، الذي لم نجد له أثرا • فرأنا
علينا صمت مطبق طويل ، كنا نحدق النظر خلاله في الأدغال التي
تحيط بالطريق وتحف به • ثم أرفعنا السمع لنعلم نسمع صوتا
يفسر لنا ما اعترض طريقنا • ولكننا لم نر ولم نسمع ما قد بعيننا
على اكتشاف كنه هذه الشجرة التي وضعت في الحديقة أمامنا •
وأخيرا سمعت الميجور يقول :

— لست أجد تعليلا لهذا ، الا باحتمال وقوع حدث ما فيما بعد
من مسافة

ووجدنا أن تعليله للحدث هو أقرب ما يكون لنعن والمنطق •
وأضاف ماننج قائلا :

— أرجح أن اليابانيين قد وضعوا هذه الشجرة في طريقنا
لنتوقف • ولعلمهم ينتظرون الآن خروجنا من السيارة

وتزاحمت فى تخاطرى شتى الصور والفكر .. اذن فهذه هى
النهاية .. وها أنا هالك وتارك سايبى لمرضها يفتك بها .. وها هى
والدتى فى إنجلترا تقض البرقية التى تحمل لها نبأ وفاة ابنها ونعيمه،
وقطع على تأملاتى وهلعى ، صوت الميجور آمرأ :

- لبقى كل فى مكانه لا يتحرك ، فبعد قليل ستلحق بنا القافلة
- واشمل كل منا لفافة تبغ راح يدخنها فى صمت وسكون ..
وبعد قليل ، سمعنا ماننج يقول :
- ألا يجدر بنا يا سيدى الميجور أن نعمل الواجب لانفاذ القافلة
كلها من هذا الفخ ؟
- تعنى أن نقفل راجعين ؟

- هذا غير معقول ..
- اذن فماذا تعنى بحق السماء ؟
- نتخلص من الشجرة أولا . فاذا لم يجد جديد نتابع سيرنا .
- فاذا ما جد هذا الجديد ، ماذا ترانا فاعلين ؟
- ليس امامنا غير سبيل واحد .. أن نتخذ من السيارة ساترا
ونواصل اطلاق النار حتى نغطي أنفسنا تماما ، ثم نستدير بها
لنقابل القافلة .

- ولكننى سمعت من الضباط باستراحة المعسكر أن هذه
المنطقة نظيفة ولا يوجد بها أحد من الأعداء ..
- ان الغابة تتسع لجيش بأسره يستطيع أن يختفى بها
- فليكن . لننتخلص من الشجرة أولا
فتطوع السائق الهندى للقيام بذلك .. وانتظر صدور الأمر
اليه .. ولكن ماننج تدخل قائلا :

- ارجو ان يترك هذا الامر لى ، لأن السائق لا غنى عنه .
- دأبى الميجور على هذا رأى .. وطلب ماننج من السائق أن
يدير محرك السيارة ويكون على أهبة الاستعداد . ثم اردف :

— اذا ما جد الجند فلا ترددوا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه

ثم ترك السيارة ومسده فى يده • وتقدم فى خطوات ثابتة منتصب القامة فى غير تردد أو وجل • وتعلقت أبصارنا به فى اشفاق وأمل وتقدير لشجاعته •

وما أن وصل الى مكان الشجرة وانحنى ليشرع فى رفعها ، حتى سمعنا صوت طلق ناري ، ترنح مانح على أثره ثم سمط على الأرض لا حراك به • وأسرع السائق مطلقا الى الخلف بالسيارة ، وانهاى الرصاص علينا من مدافع الماكية ونحطم زجاج السيارة الأمامي • واهللت عجلة القيادة من يد السائق وانجهت السيارة بعجلتيها الخلفيتين الى حافة الهاوية ، وأيقنت أننا فى طريقنا الى القاع •

وفجأة نعلقت العجلتان الأماميتان بالطريق ، وتوقف محرك السيارة • وراينا حفنة من الجند تحمل السلاح وتندفع فى اتجاهنا وتطبق على السيارة من كل اتجاه • وحاولت أن استعمل مسدسى ، ولكننى أدركت أنه قد فات الأوان • ورأيت ما يقرب من ستة جنود على الأقل شاهرين أسلحتهم البيضاء فى وجوهنا • وبينما كنت فى طريقى الى خارج السيارة ، ضربنى أحدهم بمؤخر بندقيته ، فسقطت نافذ الوعي • ولما استعدت وعبى ، رأيت البابتين يدفعون السيارة الى عرض الطريق ، كما رأيت أحدهم قائما على حراسنى موجه الى صدرى فوهة بندقيته حتى لا أحرك ساكنا •

وكان يرأس هذه القوة أحد الضباط • وما أن انتهى من الاشراف على سدد الطريق بوضع مستعرض للسيارة ، حتى أمر اثنين من الجند بالابتعاد بنا • والى منحدر الطريق وجهنا بأطراف البنادق ، ومنه الى الأدغال • وفى صف واحد سرنا فى طريق ضيق ، يتقدمنا الميجور رافع الرأس ثابت الخطوة ، ومن خلفنا الجنديان الحارسان • وسمعتهما يتحدثان عنا •

— لعلهما من الضباط العظام لسفرهما فى سيارة خاصة كهذه

— اذن فستنال خير الجزاء •

— من الذى أصاب زميلهم الأول ؟ •

- كوزانو •

- أو كنت نرغب في أن تنال هذا الشرف ؟

- كنت أحب ذلك فعلا ، ولكن ...

- قد يضطر لاطلاق الرصاص على هؤلاء إذا حاولوا الهرب

- انهم يريدونهم أحياء

- بودى لو حصلت على شيء منهم كتذكار

- اننى امي نفسى بعمامة الهندى •

وبعد مسبرة بضع دقائق ، دفع أحدهما بندقيته فى ظهرالهندي ليستحثه على الاسراع بخطواته . فما كان من الهندي الا ان توقف عن السير واستدار ليواجهه فى كبرياء وعناد • وخشيت أن يستفحل الامر فقلت للجنديين :

- لم يَكُنْ بكما حاجة لاستقزازه •

- وما ان سمعانى اتكلم لليابانية ، حنى بهتا دهشه وسالنى

أحسدهما :

- هل تكلم اليابانية ؟

- قليلا •

- والآحران ؟

- كلا •

- اذن بمنخبر الهندي بأن يواصل السير •

وكان ان تقدمنى الهندي وسرت أنا فى المؤخرة امام الجنديين

مباشرة ، رغبة منى فى تبادل الحديث معهما •

- لقد وقفنا بين أيديكم بفضل براعتكم

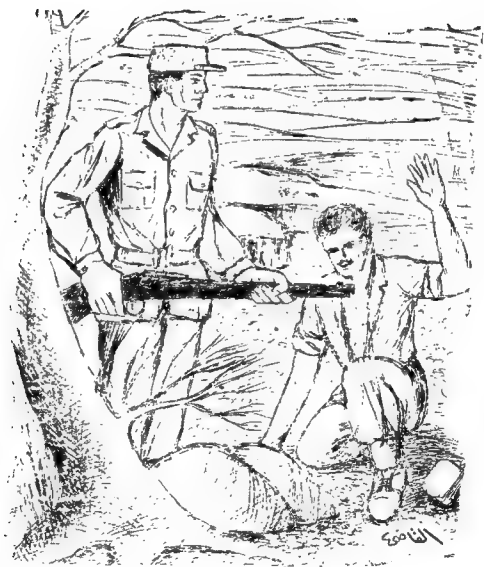
- لن يسمح بالمرور فى هذا الطريق بعد اليوم

- وما هدفكم من ذلك ؟ •

- الاسنيلاء على امبال

- وماذا تراكم فاعلين بنا ؟

- سنسلمكم الى القيادة ، وبعدها ننتهى ماموريت



وكنا قد قطعنا فى سيرنا حوالى الميل ، عندما وصل الى مسامعنا صوت طلقة مدفع ، أعقبها طلقتان من ناحية مقابلة ، ثم عاد المدفع الأول ليسمعنا صوته . فلما استفسرت من الجنديين قال لى أحدهما :
- هذه الطلقات لكذ الطريق . من حسن حظكم أنكم ابتعدتم عنه فى الوقت الملائم

واستبد بى القلق خوفا على القافلة التى كانت تتبعنا . فهى صيد ثمين لتلك الطلقات التى تمطر الطريق من ثلاثة مدافع متفرقة الزوايا . ولما أوعلنا فى السير ازددنا إضرابا من مواقع هذه المدافع ، ورأينا كيف ينشط القائمون بأمرها فى إطلاقها . وأشغفت على من قدر لهم من قواتنا أن يصطلوا بنا رها ويتعرضوا لوابل رصاصها .

وبعد ثلاث دقائق نفريبا ، سمعنا ما يدل على تبادل إطلاق النار من المدفعية المرافعة لغواننا . وحى وطيس المعركة واهتزت الأحرش بدوى المدافع ، وملات رائحة البارود جو المكان . واستمر هذا مدة ربع ساعة دون توقف . ثم توقف إطلاق النار فجأة بعد ذلك وخيم السكون على المنطقة . ووجدتني أقول للحارسين :
- لعله من حسن حظكما أيضا أنكما ابتعدتما عن ميدان الحركة

- أمامنا الكثير من ذلك

- هل نحب القتال ؟

- أحبه أو لا أحبه ، فليس لنا الخيار

وبعد مسيرة ثلاثة أميال تقريبا ، قطعناها فى عدة ساعات ، وصلنا الى المعسكر ، ودخل أحد الحارسين الى كوخ من البوص وتركنا مع زميله . وبعد قليل خرج ليودعنا أحد الأكواخ الأخرى فى حراسة أحد الجنود . ولم يكن بالكوخ قطعة من أثاث . وجلسنا على الأرض وأسندنا ظهورنا الى جدرانها . وكانت الساعة حينئذ لم تتجاوز الخامسة والنصف . ولم أصدق اننا منذ ست ساعات فقط كنا نجلس فى أمان وقد أحاطت بنا قواتنا ، نتناول وجبة بخفيفة وفى يدنا أقذاح الشاي ومعنا ما نتج يشاركنا طعامنا وشرابنا ويملا عينيه من المناظر الجميلة التى تشرف عليها الهضبة ، وقد امتلأ حياة وأملا . أين هو الآن ؟ لقد انتقل فى لحظة واحدة من عداد

الأحياء الى عداد الأموات • لحظة واحدة ، ورساصة واحدة نقلت
من عالم ، الى عالم آخر بعيد مجهول • ترى فى أى مكان سيودع
الثرى ، أم أنه لن يودع أبدا • أو يمكن أن يحظى بلحد فى هذه
الهضبة التى نعتى منذ ساعات أن يحفر لنفسه فيها قبرا • يا لهذا
الإنسان القوى الجبار • أنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ! وبالرغم
من أن معرفتى به كانت قريبة العهد ، الا اننى شعرت بالاسى لاننى
فقدت فيه صديقا بكل معنى الكلمة •

- ٢ -

وكان الميجور منهار الأعصاب بائسا • واعتبر نفسه مسئولا
عن كل ماوقع لنا ، بعرضه علينا أن نستقل معه سيارته ، وبسماحة
لماننح أن يغادر السيارة عند الشجرة • وراح يلوم نفسه ويندد
بتصرفه بالرغم من اننى كنت أحاول أن أسرى عنه وأؤكد له أننا
لم نصحبه الا وفق رغبتنا ، وأن ماننح هو الذى أصر على أن يقوم
بتنفيذ خطته • وكان متشائما لا يتوقع لنفسه أقل من الاعدام
وميا بالرصاص • أما عنى فقد كان يرى أنهم سيقون على حيائى
ليستفيدوا من المامى باللغة اليابانية • وأخرج من حافظة نقوده
صورة لزوجته ولطفليه وسألنى أن أعده بزيارتهم بعد انتهاء الحرب،
لأؤكد لهم أنه قابل الموت بكل شجاعة وأنه كان يفكر فيهم لآخر
لحظة من حياته • وطمأنته بأنه لا حاجة به لكل هذا التشاؤم ،
وأكدت له أننا سننجو معا من هذا المأزق واننا قد نتمكن من الهرب •
ولكنه ألح على فوعده بتحقيق ما طلبه منى • ورأيت هذا الرجل
الصارم الذى يبلغ من العمر ضعف ما أبلغ ينهار ويبكى •

وأخيرا اقبل احد الضباط ، وأمرنا فى لهجة خشنة
وبلفته الانجليزية الركيكة ، أن نخرج من الكوخ فورا • وصعدنا
بما أمرنا به ، وخرجنا لنجد فرقة من الحرس حاملى السلاح • •
وبين الحرس مشينا حتى قطعنا حوالى المائة ياردة ثم نادى علينا
الضابط بالتوقف • فوقفنا أمام أحد الأكواخ وقفة إنباه عسكرية
رگما أمرنا • وبعد دخوله الى الكوخ بحوالى عشرة دقائق خرج علينا

لقى أعقاب ضابط أعلى رتبة منه وكان هذا الضابط قمينا قصر
القامة ، جامد الملامح قاسى العينين ، يتبدل إلى جنبه سيف يكاد
يكون أطول منه •

وتقدم نحونا وبدأ يحملق فى وجه كل منا واحدا بعد الآخر •
وكانت عيناه تتقدان بشررا ، وقد وضع يديه خلف ظهره •
ثم سألنا أخيرا :

— أياكم يتكلم اليابانية ؟

— فأجبته

— لى بها المام بسيظ •

— هل تصادف أنك زرت اليابان ؟

— كلا

— اذن فأين ياترى تعلمتها ؟

— من بعض الأصدقاء

— هل بوسعك أن تفهمنى اذا ما تحدثت بها اليك ؟

— اذا لم تسرع بحديثك •

— فليكن • أريد منك أن تصفى جيدا لنا اما فائل • ثم تنقل

لزميليك ما سمعته منى •

وبدا حديثه وهو يروح ويفدو أمامنا فى عظمة وخيلاء • وفهمت
ما يقول اننا أصبحنا أسرى بين يدي داي - نيبون الذى يمثل
امبراطور اليابان ، ابن السماء ، سليل أسرة اما تراسو أو فيمكامي
المقدسة • ثم استطرد فى الحديث عن اليابان وانتهى الى اننا نعتبر
من المحظوظين اذ تقع أسرى بين يدي مثل هذه الدولة التى يجلس
على عرشها هذا الامبراطور المقدس • وأنه يتعين علينا بناء على كل
ذلك أن نجيب على كل ما يوجه إلينا من أسئلة • وختم حديثه
أو بالأحرى خطابه قائلا :

— هل فهمت كل ما قلته ؟

— لقد فهمت كلماتك

— حسنا • • فلتولوا وجوهكم شطر القصر الامبراطورى •

ثم لتنحنوا إجلالكم واحتراما وخشوعا •

فلمحت زيملى بأنه من الخير لنا أن نصدع بما نؤمن .

وتخيلت بيتر عندما يعلم بهذه الصورة المضحكة لثلاثتنا :
وقد وقفنا نؤدى فروض الولاء والطاعة للإمبراطور هيرهيتوالجالس
فى قصره بعيدا عبر القارات والبحار .

ثم تقدم منى الضابط وسألنى عما تعنيه علامات رتبتي
العسكرية المنبئة على كتفى . وأجبتة بأنها تشير الى رتبتي بالقوات
الجوية . فقال لى وهو ينزعها عن كتفى بكل قسوة وعنف :

- لا رتبة لك الآن .. ثم ألقى بعلامات الرتبة على الأرض :
وبعد ذلك ثنى لى الميجور ونزع شارة رتبته من أحده كتفيه ،
فاستشاط الرجل غضبا ووضع يده على شارة كتفه الآخر .
فما كان من الضابط اليابانى الا أن النفث لناحيتى محتدا :

- قل له أن يرفع يده

- فلما بقلت للميجور ما قال ، صاح محتدا هو الآخر :

- قل له اننى احتفظ برتبتي العسكرية بالرغم من اننى أسير

- وظل واضعا يده على كتفه فى اصرار المستميت .

وامعانا من الضابط اليابانى فى اذلال الميجور الهندى
بأن يصفعه على وجهه . غير أن هذا لم يحرك ساكنا . فقال له
الضابط :

- ألم نقيم وتسمع ما أمرتك به ؟

- سمعت ونفمت .. ولكننى أرفض الاعتداء على ضابطى

الأعلى .

- فاستشاط الضابط غضبا وخطا الى الأمام حتى وقف وجها
لوجه أمام الهندى ، الذى لم يقابل نظراته المنحدية بل رفع عينيه
الى السماء متجاعلا وجوده كلية . وبأقصى ما تستطيعه اليابانى
من قوة ، وجه للهندى لكمة قوية الى فكه قائلا :

- هكذا يجب أن تكلمه .

- ولكن الهندي لم يحرك ساكنا وظل ثابتا كتمثال من الصخر .
ولما رأى الميجور أن الموقف يزداد توترا قال للهندي :
- أرجوك أن تنفذ ما يأمرك به .

فأصر الهندي على رأيه ، وما كان منه إلا أن اندفع في سرعة
إخاطفة الى الأحراش ليلوذ بالفرار .. ولكنني كنت أدرك ، ولعله
هو الآخر كان يدرك ، أن فرصته في النجاة غير محققة . وكان
إن انطلقت رصاصة من بندقية الياباني الآخر أردته ذبيلا .

الفصل الرابع

- ١ -

مثلنا كل على انفراد في كوخ الضابط الياباني . وكنت
أتهيب عدا الاستجواب بعد ما شاهدت ورأيت من مظاهر قسوة
اليابانيين وعنفهم . فما أن حل دوري حتى كان استقبال الضابط
لي استقبالا وديا على خلاف ما توقعت ، فسمح لي بالجلوس
على الأرض وقدم لي سيجارة قائلا :

- انني جد آسف لتلك الظروف التي اضطررنا لقتل الهندي .
وكما سبق أن قلت لك ، أرجو أن تساعدني على ما أنتويه
من معاملتك بكل أناة وحلم .

- ثم استطرد في حديث حاول أن يخفي به ما أعقبه من أسئلة
في الصميم . ولقد حاولت أنا الآخر أن أظاهر بأنني لا أفهم من
حديثه إلا ما ظهر منه . أما ما كان يباطنه فقد احتفظت به لنفسى ،
وجاريتيه فيما كان يهدف اليه ، ولم أجده أى ضير في هذا ؛
لأنني في الواقع لم أكن أعلم شيئا عن خططنا العسكرية .. ولكنه
عندما شعر أخيرا أن إجابتي لا تقدم ولا تؤخر ، بدا يظهر

على حقيقته ويكشف القناع عن وجهه ، وعادت لوجهه ملامحه الصارمة ولعينيه قسوتهما وشرهما . ثم لجأ الى التلويع بما يستطيعه معى من اساليب تضطرنى لأن أشفى غليله . وأجهدت نفسى حتى يجعلته يطمئن الى ، فليس أسر على المرء من ارضاء غرور المتعجرفين وأخيرا اعادنى لسجنى وجاء دور الميجور ، الذى عاد بعد ساعتين من بدء استجوابه . وعلمت منه أنه ألح عليه بأسئلة أراد بها أن يعرف منه بعض ملومات معينة ، لم يكن الميجور نفسه ليعلم عنها شيئا . وكان الرجل فى حالة انهيار ويأس قاتل . وحاولت أن أسرى عنه وأقوى من روحه المعنوية ، وأمنيه بأننا سنحتاج هذه المحنة ان عاجلا أو آجلا . وذكرته بأن قواتنا لن تدعهم هكذا يعيشون فى الأرض فسادا . وكنتى ككنت بهذا أحاول فى الوقت نفسه أن أبعث الاطمئنان الى نفسى ، لأننى لم أكن أقل انزعاجا وقلقا منه .

وما ان حل الظلام، حتى قيدنا بسلاسل من حديد ، ووضعت الأصفاد فى أيدينا . ومع الليل وسكونه ، وكما هى العادة دائما، قضيت ساعاته اقلب وسائل الفرار على كل وجه : وما ان انبلج نور الصباح حتى تبدد ستر الظلام وتبددت معه جميع ما رسمته من خطط للهرب . وتبينت من أصوات اطلاق النار أن هناك معركتين دائرتين ، واحدة فى اتجاه امبال ، والأخرى فى اتجاه كوهيما . وما أن انتصف النهار حتى جئء بالمزبد من الأسرى ، وأقام العدو من حولنا سورا من الأسلاك الشائكة . ولم يسمح لنا بالاتصال بالأسرى الوافدين من الانجليز والهنود . وبعد قليل دعيت لأقوم بترجمة اجابات بعض الأسرى .

وسمح لى وللميجور بالخروج من كوخنا بعد الظهر حوالى الساعة الخامسة للتريض قليلا . وكانت مفاجأة سعيده لى عندما لمحت أمام أحد الأكواخ جهازا لاسلكيا للاستقبال . فلما صرنا بالقرب منه ، سألت الجندى المختص به عن آخر الأنباء . وكان شابا لطيف المشر ، فأجابنى فى هدوء قائلا بأن الجهاز ليس مخصصا لاستقبال الأنباء وأنه لا يستطيع أن يستمع الى اليابان ، فقلت له :

- ولكنك تستطيع أن تستمع الى الهند •
- أعتقد ذلك ، ولكن ...
- بودى لو استمعت اليها •
- فما كان من الحارس المعين معنا ، الا أن أمرني بمواصلة السير • فقلت له :
- ان الأخبار فيها مايسركم • لقد سمعت من الأسرى القادمين أنكم فى طريق الاستيلاء على امبال
- هل قال لك الأسرى الانجليز ذلك حقا ؟
- بوسعك أن تتأكد من ذلك اذا أدت الجهاز •
- وعينت له طول الموجة ، ووقفت أنتظر النتيجة بفارغ الصبر • وطال انتظارى وطالت محاولته • وأخيرا قال لى وهو يرفع السماعة عن أذنيه :
- انها دعاية انجليزية
- أرجوك أن تسمح لى بالاستماع اليها
- ليس بوسعى هذا • ان ذلك من الامور المحظورة

والبحث عليه فى الرجاء ، حتى وافق أخيرا • ولعل الفارى قد ادرك السر فى كل هذه المحاولات ، لأن انساعة كانت قد قاربت الوقت المعين لاذاعة سابى ، ولم أرد أن اضيع هذه الفرصة بحال ما • وما أن ثبت السماعة على اذنى ، حتى سمعت صوت سابى كما سمعته من قبل • وكدت أطيح فرحا • ولم أصدق من فرط سرورى اننى أقف بين الادغال بعيدا لأستمع فى أسرى لصوت سابى يرن فى أذنى • ولم يعيننى ما كانت تملؤه من أخبار • ولم يكن سماعى لصوتها الا النبأ الأكبر الذى حملته أمواج الاثير الى • وسمعتها تقرا :

- ان القوات البريطانية والهندية تقوم بهجوم شديد على الحصار المفروض على الطريقين المؤديين الى امبال وكوهيما •
- ولعلها كانت تريد أن تطمئننى على مصيرى دون أن تدري ومن حيث لا تقصد • ترى متى ستعلم بموضوع وقوعى فى الأسير؟

كانت ليلتي الثانية في الاسر اسوأ من الأولى . وازداد اليأس
ديبا في قلبي ، وتلك الأصفاذ في يدي . وحاولت أن اتحكم في
أعصابي وأدفع عن نفسي ما تضطرب به .

وسالت حارسي أن يعطيني لفافة تبغ ، فلم يصن علي بها ،
وكان لها تأثيرها في ادخال الهدوء علي نفسي واستعادتني لرباطة
جأشي . وشرعت في بحث فكرة الهرب مع الميجور . وبدأ لي من
مناقشته أنه بئس لا أمل له في تحقيق هسده الفكرة عمليا .
ولكنني أقنعتة في النهاية بمبادلتني الرأي ، وبأنها مناسبة لحالة
يأسه لن تقدم أو تؤخر من النهاية التي ينتظرها . وما ان أصبح
الصباح حتى رأينا أن التفكير شيء والتنفيذ شيء آخر . وأن فكرة
الهرب مستحيلة التحقيق . وأنها أقرب الى الانتحار منها الى أي
شيء آخر .

ثم جاء الحرس واصطحب الميجور مع سائر الأسرى . ورأيتهم
يحيطون بهم وقد ساروا في صف واحد . ونظر الى الميجور نظرة
كلها أسي ، فاشفق علي . وكان هذا هو آخر عيني به .

وسمح لي بعد الظهر بالتريض أسوة بانيوم السابق .
وحاولت نفس المحاولة مع عامل الجهاز ، فرفض وسألني أن أبتعد
عنه وأعود اليه بعد عشر دقائق يستمع فيها الى الأحبار وينبئني
بمضمونها . وكان أن عدت اليه فعلا كما طلب مني فقال لي :

- ان القوات اليابانية في تقدم

- وماذا عن القوات البريطانية ؟

- يقول المذيع أن امبال لن تقع في أيدينا

- المذيع ؟

- أجل . الرجل الذي يقرأ النشرة

- وهل كان رجلا ؟

- نعم • كان اليوم رجلا
- ألم تسمع صوت امرأة على الإطلاق ؟
- كلا • بالأمس كانت امرأة !

ولم يسمح لى فى اليوم التالى برياضتى اليومية • ولما استفسرت عن السبب ، قيل لى بأنها أوامر الضابط ناكامورا • ولما كنت على أحر من الجمر لمعرفة صوت المذيع الذى يقرأ نشرة الأخبار من محطة اذاعة دلهى ، حاولت بكل الوسائل أن أقنع أحد حراسى يتقضى ذلك من عامل اللاسلكى ، فعلمت منه بأن صوت المذيع وكان صوت رجل • فاستبد بى القلق واشتد جزعى ، لأن هذا يعنى أن سابى مريضة ، وتبادر الى ذهنى ما ورد بخطاب مرجوت وجنيفر عن سوء حالتها الصحية • وشعرت بدبيب اليأس القاتل من عجزى عن الاتصال بها فى وقت قد تكون فى أمس الحاجة لقربى منها • وعقدت العزم على تنفيذ فكرة الهرب اذا ما علمت أنها لم تعد لقراءة نشر الأخبار بعد يوم أو يومين على الأكثر • ومهما يكن من أمر محتملات هذه الفكرة وتناجها ، فأننى أرحب بالموت ما دمت عاجزا عن أن أكون بالقرب من سابى فى محنتها •

وتحقت فى اليوم التالى من أن الصوت لم يكن صوتها • فكدت أفقد عقلى ، وأندفع بجنون لأفقد حياتى كما فعل الهندى • ورأيت أخيرا أن أتريث ، وأن أغلب العقل على العاطفة •

وفى صباح اليوم التالى ، حلقت طائرة من طائراتنا الهاريكنز فوق موقعنا وأصلته نارا • فقتل من قتل من اليابانيين ، وحرق ما حرق من أكواخ المعسكر • الا اننى لم أجد منفذا للهرب من خلال ما سببته هذه الغارة من هرج ومرج • ورأيت الضابط اليابانى يمر بين القتلى ، ثم قال لى :

- ان موت هؤلاء المقاتلين اليابانيين سيكلفكم كثيرا • ولست أبقى عليك الا لاننى أريد أن انتفع بك عند ما يقتضى الأمر ذلك • وصفنى على وجهى بكل ما أوتى من قوة • ثم أمر الجند بقيدى الى إحدى الأشجار •

وظللت موثقا فى الشجرة ، يحز الألم فى أوصالى بأكثر مما يحز فى نفسى ، الى ما بعد ظهر هذا اليوم .. وأذكر اننى ما تحملت ألما من قبل فى حياتى ، بقدر هذا الألم الذى تحملته فى هذا اليوم .

وبعد أن خلى بينى وبين الشجرة ، اقتادونى موتق اليدبن الى الأدغال ، لأتبع مؤخرة الفوات المنسحبة . ولم يتيسر لى أن أدرك العلة فى هذا الانسحاب . هل كان وفق خطة موضوعة ؟ أم كان نتيجة للقارة الجوية ؟ .

وتوقفنا بعد مسيرة ميلين ، عند مرتفع من الأرض تحيط به الخنادق . من كل جهة . وهبطت بضع درجات الى أحد المواقع ، حيث وجدت جاويشا وثلاثة من الجنود وعرفت منهم اننى سأقضى الليل معهم .

وبدأ الظلام يرخى سدوله ، ولم يكن بالموقع غسир بمصباح خافت جعلنا نبدو كالأشباح ، أبعد ما نكون عن بنى البشر وما يجب أن يكرم به الانسان .

وجلست اتجاذب اطراف الحديث مع الجنود ، وقد اسوا الى بعض الشيء لالمامى باللغة اليابانية .. وبعد أن سمحوا لى بقليل من الأرض أسد به رمقى ، شعرت بالألم فى أمعائى ، مما يدل على أن الدوسنطاريا قد عاودتنى . فاستأذنت أن يصحبنى أحدهم الى الخارج ، بعد أن شرحت لهم الأمر . وأصدر الجاويش أمره الى أحد الجند بأن يقوم على حراستى . ولما بلغت أعلى الدرج استندرت الى الجاويش قائلا :

— بهذه القيود الحديدية ؟

فأصدر أمره بعزل وناقى عند دخولى الى دورة المياه فقط ، على ألا تغفل عين حارسى عن مراقبتى . ولم تكن دورة المياه الا حفرة فى الأرض فى الهواء الطلق بجوار شجرة ضخمة .

ووقف الحارس شاهرا مسدسه ، ولم يكن هناك من ستره بينى وبينه الا ظلام الليل الحالك . وبعد عشر دقائق من عودتى

للخندق ، استأذنت فى الخروج ثانية وضحك الجند منى ، لانهم كانوا يعرفون بحكم تجاربهم ما أقاسيه • وفى كل مرة كانوا يحلون وثائق تم يعيدون احكامه ، حتى قال احدهم متندرا

— أولى بكم أن تنزعوا عن يديه قيده الحديدى

وتكررت هذه العملية حوالى سبع مرات • ولاحظت أن حارسى من كثرة التكرار قد بدأ يخفف من وطأة مراقبته لى • فكان يصحبنى ثم يمشى الهوينى جيئة وذهابا دون أن يظل شساهرا مسدسه فى اتجاعى كما كان يفعل من قبل • وخطرت لى الفكرة التى أوحى لى بالتماذى فى التظاهر بالمرض • وضاق حارسى ذرعا بى حوالى منتصف الليل ، ونهرنى مهددا بأنه سيقيدنى الى الشجرة المجاورة لدورة المياه • فاعتذرت له بأنه لاجيلة لى فى ذلك • وسألته أن يسمح لى بالخروج فى هذه المرة لعلها تكون الأخيرة • وخرجت من الحبأ متناقلا متظاهرا بأن قدمى لا تكادان تحملانى ١٥ وتركنى فى مكانى المعهود وراح يذرع الأرض بخطى الملل والضيق بمهمته • وشرعت أقلب الأمر على كل وجوهه ، مقدرا كل الاحتمالات القريبة والبعيدة •

وأخيرا اخترت الفكرة التى استقر عليها رأى فى رأسى ٢٠ فانتظرت حتى ابتعد الحارس عنى ووقفت لأمسك بفرع الشجرة المدلى فوق رأسى ، ناسيا ما بى من ألم وارهاق ، وارتفعت بساقى معاذرا أن أحدث أى صوت يسترعى انتباه الجندى • وتمكنت أخيرا من أن استقر بصدرى على الفرع المدلى • وكان الحارس قد عاد بخطواته ليقترب منى • فسكنت فى مكانى حتى ابتعدة ثانية ، وانتهزت الفرصة لانتقل الى فرع آخر فى الجهة الأخرى من الشجرة • وعاد ليستحبنى على العودة • ولما لم يسمع منى ودا راح يمدق النظر فى الظلام وأعاد النداء • ثم تقدم من المكان الذى كنت أستريح به ماذا ذراعيه فى الظلام الدامس ليتحسس وجودى • وأسرع بحركاته المشوبة بالدعر ودار حول جذع الشجرة فزعا مرتعبا • وسمعته يقول بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد غيرى :

ـ اخرج من مخبئك والا اطلقت عليك النار .

وعندئذ تحقق من هربى . فعاد يقفز بأقصى ما يستطيع من
سرعة الى المخبا . . وانتهزت الفرصة وهبطت قفزا الى الارض ،
وركضت الى اول اخندق صادفتى . وحرصت أن أتفادى جند
الحراسة والا اثير شكوكهم . وساعدنى فى هذا ان انتباههم كان
مركزا على الخارج وليس على داخل المعسكر . وواصلت ركضى
فى منحدر التل بأقصى ما أستطيع من اندفاع وسرعة . وتعثرت
لسوء حظى فى شىء ما وانكفات على وجهى ، وظللت فى وضعى
هذا لا احرك ساكنا . وكان هذا الشىء الذى تعثرت قدمائى به ،
سلك التحذير الذى اقامه اليابانيون لينبههم فى حالة اقتراب أحد
من حدود معسكرهم . وما أن تبينت ذلك حتى نهضت مسرعا فى
اتجاه الدغل الكثيف ، الذى سيكون خير مستر لى فى هذا الظلام
الدامس . وبعد أن خطوت عدة ياردات شعرت بشىء ما يصيبنى
فوق مرفق ذراعى ، ثم سمعت صوت طلق نرى يكاد يكون مصاحبا
له . وعندئذ شعرت بألم حاد فى كتفى . وانخبت لأختفى بين
الأعشاب مواصلا العدو . وتتالت الطلقات النارية ، ولكننى كنت
فى امان منها بحكم المسافة وجذوع الأشجار الضخمة التى كانت
تصطدم بها . ولم أكن أدرى فى أى اتجاه كنت أسير ، ولم يكن
يعيننى هذا ، ما دمت أبتعد عن المعسكر . وبعد أن قطعت مسافة
غير قليلة ، توقفت لأصيحخ السمع ، ولم تلتقط اذنائى من الأصوات
الا أصوات الحشرات والحيوانات . ولم أعر كل هذا أى اهتمام ،
ما دمت قد أصبحت بمنأى عن العدو وبناذقه وسيوفه .

ثم استأنفت سيرى بعد أن استرحت قليلا . وبدأت أحس
بأن ذراعى المصابة كادت تتيبس وتتوقف عن الحركة ، فتذكرت
أمرها ، ووقفت لانتزع قميصى اليسارى لأستعمله ضمادة لجرحى
الذى كان ينزف دما . ولم أستطع من شدة الظلام أن اتبين شيئا
عن الجرح ، بأكثر مما يحيطه من دماء بدت داكنة فى الظلام .

واخذ منى التعب والارهاق حتى وجدت الا معدى لى من ان
استريح قليلا . فاستلقيت على الأرض مجهدا مكدودا حتى قلبنى
النعاس على امرى ، ورايت فيما يرى النائم ان الضابط ناكامورا
يفرغ رصاص مدفعه الرشاش فى صدرى . فضحوت من نوى
لأستمع الى اصوات اطلاق النار ، بعيدا على طريق امبال .»

الفصل الخامس

- ١ -

واستأنفت مسيرى فى الصباح . وكنت أمشى على غير هدئ «
ولاحظت اننى فى منطقة تغطيها سلسلة من الجبال حيث يبلغ
ارتفاع بعضها اكثر من خمسة آلاف قدم . وكان على ان أهبط بين
وديانها وارتفع ، متعرضا لكل انواع المخاطرة والمناء . وكان
الصوت الوحيد الذى يعين اتجاه ما جولى ، هو صوت اطلاق النار
المتبادل فى المعركة . وقدت ان تكون المسافة بينى وبين مواقع
اطلاق النار بما لا يقل عن عشرة اميال .

وضاعفت الدوسنطاريا من آلامى الجسمانية . وازدادت هذه
الآلام حدة لخلو معدتى من الطعام . وشعرت بأمعائى تكاد تتمزق «
وبلدراعى ينبض الما . كل ذلك فى وقت كنت لا أجد فيه للراحة
مبيلا ، وكنت مضطرا فيه أن أوصل مسيرى صاعدا هابطا بين
منحدرات التلال ووديانها .

وانتصف النهار او كاد ، وبدأت أشعر بالظما لأول مرة منذ
اقرائى . وواصلت طريقى الشاق العسير بما يقرب من الساعتين «
لكما عرفت ذلك من ميل قرص الشمس . ثم رأيت طريقا ممهدا
هابت فى سبرى دون ان أفكر الى أين سينتهى بى . وبعد ان
لقطعت فيه يضع مئات من اليارات ، ابصرت بحركة عن بعد «

اقانحت جانباً لأتوارى بين الأعشاب . ومن مكاني استطلعت أن
أراقب الطريق ، فرايت صفاً من اليابانيين يتقدم عن بعد ، وقد
حمل أفرادهم جرار الماء مع بنادقهم . وقد لاحظت أنهم مجهدون ،
يسرون مطرقين رؤسهم صامتين ، وكانهم من حيوانات الغابة التي
تحيط بنا .

وبعد أن مروا أمامي ، نهضت وانطلقت في عكس اتجاههم
لأسمع بعد برهة وجيزة أصوات جلبة أخرى ، فعدت لأتوارى بين
أحراش القائمة الى جانب الطريق . ورايت بعد قليل على الطريق
فصيلة أخرى من الجند بكامل معداتها الحربية ، بما في ذلك
المدافع الثقيلة التي تحملها البغال والحمير . ومكثت في مخبئي
حتى انتهى مرورهم ، ثم نهضت لأتابع طريقى في الأدغال ، بعد أن
تبين لي أن الطريق لا يؤمن جانبه . واشتدت وطأة الظمأ على ، مما
حدا بي الى أن أسير في غير اتجاه معين بحثاً عن الماء ، متمثلاً أمامي
ما كنت أقرؤه في القصص عن الذين يموتون ظمأ في الصحراء .

ولم أجد أثراً لأى جدول أو نبع ماء . ورايت بعد أن ضاعت
منى هذه الساعات في البحث دون جدوى عن الماء ، أن أولى وجهي
شطر خطوطنا مستعيناً باتجاه قرص الشمس . واندفعت ناسياً
ظمأى ، غير شاعر بالآلام جسدى ، تحلوني - وتقوى من عزيمتي -
الرغبة في أن أبلغ خطوطنا بأى سبيل كان .

وخيم الظلام ثم جن الليل ، وأنا في طريقى لا طعام ولا أمل ،
حتى تملك الإعياء مني ، وسقطت على الأرض مجهداً مكدوداً ،
فريسة لكل ما يمكن أن يتعرض له بشر من المم وظمأ ونصب . .
وسرت قشعريرة في بدني ، نتيجة لضغفى وأرهاقى . وقضيت
ليلة ثقيلة الوطأة ، خيل الى أن الزمن قد توقف عندها لا يتحرك .
وطلع على صباح بعد ليلة خلت أنه لن ينتهى أبداً . ونهضت لأستأنف
سرى ، وزادت حرارة الشمس بعد ساعات من ظمأى ومن الآمى .
ومع اليأس الذى بدأ يتسرب الى نفسى ، بدأ الوهن والضعف يدب
إلى جسدى ، وتطلعت الى السماء لأرى قرص الشمس وقد بدأ
يميل نحو الغروب وسرت وأنا أكاد أزعج ، متجرداً من كل احساس

وتشعور ، حتى الاحساس بالزمن والشعور بغيائي . وقبابة وقع نظرى على ما يشبه انعكاس اشعة الشمس على صفحة الماء ، فاندفعت كالمجنون قبل أن أفقد هذا السراب . ولكنه لم يكن سرايا ، بل كان ماء يجرى بين الصخور . وانطرحت أوضا وأفسحت مكانا بين الحجارة بذراعى السليمة أن دفنت فيه وجهي . وأدركت في هذه اللحظة أن الله قد جعل من الماء كل شيء حي . أدركت ذلك وأدركت أن الماء مصدر الحياة لكل من فى الكون من الأحياء جميعا . ثم غلبني النعاس الذى حاولت أن أقاومه حتى لا أضيع وقتا ، ولكننى لم أستطع أن اتقلب عليه .

- ٢ -

واستيقظت من نومي فى ليلة صافية الاديم ، عليلة النسيم . ولم أتحقق بادئ ذى بدء مكان وجودى ، فقد كنت أحلم بومبائى وبمنزلنا على التل وسابى نمر بأصابعها على جبينى . وبدأت شيئا فشيئا أتحقق من تلك الصخور التى أستلقي عليها ومن قطرات الماء التى تتساقط على جبينى . ولم يكن هناك سابى ولا بومبائى ولا منزلنا الذى يطل على مشارفها . لم يكن هناك غير هذا السكون القاتل فى تلك الغابة الموحشة . وتذكرت أننى كنت أقاسى من الآلام أشدها ، فى كل مكان من جسدى . وتذكرت أننى عندما بلغت هذا المكان كنت قد بلغت آخر رمق من حيائى . وحاولت أن استجمع شتات فكرى ، لأننى لم أعد أشعر بشيء من ذلك الآن . فحركت ذراعى فتحرك بكل صعوبة ، وحركت ساقي فلم يتحرك إلا بضع بوصات . ثم حاولت أن أنهض من رقادى ، فخيّل الى أن بجسدى قد شد الى الأرض وأصبح قطعة منها . وكروث المحاولة بوضع آخر ففشلت وانكفأت على وجهي .

قلت لنفسي ، هل هو الموت بدأ يدب اليك بمقدمات الهلاك ؟ أو قدر لى أن أهلك فى هذه البقعة من العالم لتصبح جثتى طعاما للجوارح والدواب ؟ . أو يبلغ بى ضعفى وعدم احتمالى هذا الحد الذى يجعلنى عاجزا حتى عن النهوض من مكانى ؟ . أو خاطرت

بكل ما خاطرت به من محاولة فرارى لأنطرح على الأرض عاجزا
هكذا ؟

ولم تكن ليلتى هذه كسابقتها . كانت تلك ليلة آلام الجسد ،
أما هذه فليلة الضنى وعذاب القلب . عجبا لهذه الحياة وتصاريف
القدر ! . فما أنا أتوسد الأرض والحجارة فى مكانى هذا على حدود
الأبد ، وغيرى الآن يتوسد الفراش الوثير ناعما هادئا . . فى هذه
اللحظة بالذات ، تجد الضاحك وتجد الباكي ، وتجد السعيد وتجد
الشقى . هناك من يفرح باستقبال مولود جديد ، وهناك من يحزن
لوداع فقيد عزيز . زوجان سعيدان وزوجان فراق بينهما الزمن
ومن اتخمه الثراء ، ومن لا يكاد يجد قوت يومه . كل فى شأنه وكل
فى دنياه الخاصة به ، وكأنه يعيش فى كوكب أفرد له واختص به
إنها الحياة وأنه القدر . القدر الذى دبر نجاتى من بورما لأقضى
ضئلة سعيدة فى الهند . القدر الذى انتزعنى من سعادتى وهنائى
ليلقى بى بين الأدغال على فراش من الصخر فى مانيبور ! .

ثم صحت الدنيا على صبح يدوى بأصوات المدافع . وحاولت
مع ضوء النهار أن أستجمع شتات فكرى لأقنع نفسى بأننى يجب
أن أغالب ضعفى ، حتى أستطيع أن أوصل طريقى لأكون الى جانب
سأبى ، فى وقت كنت أعرف أنها فى أشد الحاجة الى قلب يحنو
عليها . ولكننى فشلت فى أن أخلى بينى وبين الأرض التى أبت على
أن أفارقها . ثم غبت عن وعيى ولم أدر بشئ مما يدور حولي .

- ٣ -

عندما فتحت عيني بعد ذلك ، لم أصدق ما رأيت من سماء
ورقاء صافية ، وأشجار تتحرك عن يمينى وعن يسارى . وتبادلت
الى ذهنى لأول مرة أننى قد انتقلت الى العالم الآخر . ثم تحققت
عن أننى حى أرزق ، عندما رأيت وجهها يطل على بعينين سوداوين
وانف أفطس . قاسمت وأغمضت عيني .

كنت محمولا فوق محفة من البوص . وفتحت عيني بحدس

لاى ظهر الرجلين اللذين يحملان المحفة . ثم عدت لاطبق جفنى
حتى استطيع ان افرغ لما اريد التفكير فيه ، لأننى شعرت بياس
قاتل يطبق على صدرى . فهذا الذى اراه من حولى ، هو الأسر
بعينه . الأسر الجديد الذى سيكون اشد وطأة من الأول بعد محاولتى
الهرب .

ولم اعد افكر فى الآمى ولا فى انقضاء أجلى . بل كنت أصون
لنفسى ما ينتظرنى من عذاب ، وعقاب . ان هؤلاء الرجال الأربعة
الذين يجشمون انفسهم مشقة حملى على هذه المحفة ، لم يفعلوا
هذا لمجرد انقاذى أو رحمة بى ، بل هم ينقلوننى لما ينتظرنى من
عذاب واستجواب . ففتحت عيني وقلت باليابانية :
- هل لى فى جرعة ماء ؟

فحملق الرجل الذى وقع بصرى عليه لأول وهلة فى وجهى
ثم التفت الى زميله الذى يحمل معه المحفة فى المؤخرة ، وراح
يسألنى :

- الا تتكلم الانجليزية ؟

- بكل تأكيد ، فأنا انجليزى .

- هل نشعر بتحسن ؟

- اننى بحاجة لجرعة من الماء .

- عندما نبلغ أعلى التل ، سأعطيك ما تريد .

- الى اين تذهبون بى ؟

- الى مستشفى الميدان .

- هلا ذهبتم بى الى البريطانيين لئن فعلتم هذا فسأعمل على

مجازاةكم خير الجزاء عودوا بى الى البريطانيين !

فابتسم الرجل ، وخيل الى انه يسخر منى . ثم سمعته

يقول :

- اننا ننقلك فعلا اليهم .

وحاولت ان اتبين من لهجته ومن نبرات صوته ما اذا كان يقول

صدقا أم ما اذا كان يسخر منى ؟ .. ولكننى لم أستطع ان احصر

تفكرى او ان اهتدى الى كئى معين . ان هذا الرجل يتكلم
الانجليزية علاوة على انه يفهم ما قلته باليابانية له ، ولكنه بالرغم
من كل ذلك يابانى السحنة واللامح . وسمعت الرجل يقول وكأنه
قد قرأ افكارى :

— لسنا من اليابانيين . امرف ما جال بخاطرك .

— هذا صحيح . ان ملامحهم المغولية هى التى خدمتني . وكان
يجب ان افهم ذلك لو كلفت نفسى بتأمل قبعاتهم .
فسرى عنى . وارتفعت حالتى المعنوية ، وانا لا اكاد اصدق ،
اننى نجوت . وسالته :

— كم الساعة الآن ؟

— الثالثة .

— وفى أى يوم نحن ؟

— الأربعاء .

— اظن ان الشهر هو شهر ابريل ؟

— الخامس من ابريل .

— ما اظننى سانسى هذا اليوم ما حييت . الخامس من ابريل .

وعندما بلغنا قمة التل ، ووضعوا المحفة على الأرض ، حاولت
ان انهض لاقف على قدمى . الا انه اتضح لى ان ما شعرت به من
تحسن كان فى حالتى المعنوية ، أما جسدى فقد كان معتلا سقيما
خائر القوى . ورحت اتأمل ذراعى التى فقدت الاحساس بها ،
ووصلت الى انفى رائحة الجرح الكريهة ، مما تخشيت معه الا يكون
هناك أمل فى شفائها .

وعاد الرجال ليرفعوا المحفة لمواصلة سيرهم ، وسمعت الرجل
الذى كان يتبادل الحديث معى يقول :

— هل انت بخير ؟ . بيننا وبين المستشفى مسيرة ساعة .

وازدادت حالتى الصحية سوءا ، وشعرت بغثيان ، وكنت افتح

عيني من وقت لآخر ، فاجد الكثير من القوات سائرة على الطريق »
وأسمع صوت اطلاق النيران في المعركة الدائرة عن بعد .

ومع كل هذه الآلام التي كنت أقاسي منها ، لم يتخل عني حنيني
للقاء سابي لحظة واحدة . وبالرغم مما كنت أشعر به من اضطراب
في ذهني ، الا انني كنت لا أفكر فيما ينتظرني من لحظة لقاء بها .

ووصلنا الى المستشفى في تمام الساعة الرابعة والنصف ،
وأودعت كوخا مقاما من البوص ، ثم لحق بي مريض آخر . وقيل
لنا ان الطبيب في طريقه الينا . وحاولت أن اتحدث الى زميلي
الجريح ، ولكنه لم يكن لديه أى استعداد لهذا . وأقبل الطبيب
وبعد أن تأمله ، أشار باخراجه من الكوخ . ثم فرغ لى .

الفصل السادس

- ١ -

نقلت في سيارة أسعاف في مساء اليوم نفسه . وحمدت الله
انني ما زلت أحتفظ بذراعي ، وقد طمأنني الطبيب بأن الأمل كبير
في تحسين حالتي ، وأن هذا سيتقرر بصفة نهائية في امبال .

وكان الطريق وعرا ولم تستطع السيارة ان تنطلق فيه بأكثر
من خمسة اميال في الساعة . وبعد أن انحرفت الى طريق امبال ،
بدأت تنطلق على أرض مبهدة مستوية . وفي هذا الطريق كنا قد
بدانا السير منذ أسبوعين ، أملين أن نبلغ امبال بعد ساعتين .
نعم . . . أسبوعان فقط خيل الى أنهما شبه عامين طويلين بكل
مافيهما من شهور وأيام . كنا أربعة ، قتل منا اثنان ، والثالث
لا يعرف مصيره ، والرابع يرقد في سيارة الاسعاف جريحا محظما
لم يتقرر بعد مصيره . أسبوعان من الأسر ومن العذاب ، ومن المرض
ومن الجراح ، ومن السير على غير هدى ومن الظمأ القاتل الذي اقترب

بى من حدود الآخرة • تلك الأحداث التى مرت بى والتى هبأت
لى سبيل الهرب ، الى أين تسير بى ؟ ماذا وراء هذه الأحداث ؟
والأى مصير تعده لى ؟ ان الطريق الى معرفة الإجابة عن هذه الأسئلة ،
'قيما أرى ، هو الطريق الى معرفة الاله القدير ، الذى دفعتنى كل'
هذه الأحداث لأزداد قربا منه •

وحاولت أن استرخى لا نعم بما انتقلت اليه من أمان ، ببعدى
عن اليابان واليابانيين ، وبأننى بين أيدي مواطنى الرحيمة • وكنت
أتطلع حولى لأتمتع برأى زملائى من البريطانيين الذين يحيطون
بى بالرغم من ظلام السيارة الدامس مستعينا على الرؤية بوهج
سجائهم •

وبلغنا غايتنا فى يسر وسهولة • وحملت على المحفة الى فراشى
الوثير بالمستشفى • ورفعت بصرى لأجد الممرضة وقد وقفت تحنو
على كملاك من ملائكة النعيم • بل ولقد خيل الى اننى قد انتقلت
فعلا الى أجواز السموات ، لاننى لم أصدق اننى بعد المكث فوق
الأدغال والصخور ، أرقد على هذا الفراش الوثير بين الجدران
وزملائى من بنى البشر •

وكنت أريد أن اخلد الى النوم الهادى الذى حرمت منه طويلا ،
ولكن الممرضة لم تدعنى أنعم بما كنت أتوق اليه من نوم وهدوء •
كان يجب أن أبدل ملابسى وأغتسل ، ثم استعد للفحص الطبى •
وأقبل الطبيب الذى أمر بحقنى بالمخدر الذى افقدنى صوابى •
ولم أستعد وعيى الا فى صباح اليوم التالى ، وعلمت اننى أستطيع
أن احتفظ بذراعى والأحاجة تدعو لبترتها • الأمر الذى رفع من
روحى المعنوية وبعث السرور الى قلبى • وكان أول شئ فعلته
فى هذا الصباح ، تحريرى رسالة الى سبابى بيمسدى اليسرى •
واودعتها كل مشاعرى وحبى ، ولما لم يكن فى استطاعتى أن أضمن
رسالتى كل مامر بى من أحداث ، فقد آثرت أن أملا سطور رسالتى
بذكريات الماضى الجميل ، ثم سلمتها الى الممرضة لتبعث بها •

وكان يوجد بالغرفة التى أنزل بها جهاز راديو • وفى الساعة
المحددة لاذاعة دلهى ، جلست انتظر سماع نشرة الأخبار فى لهفة

وقلق • وكنت أعرف اننى بمجرد الاستماع الى صوت سباني •
ستبدد مخاوفي وتزول عني شكوكي • كما اننى كنت أعرف ان
عدم استماعي لصوتها سيهبط بى الى أدنى درجات اليأس والقنوط •
ولكنها لم تقرأ النشرة ، وكان صوت المذيع صوت رجل • وكان فى
ذلك بؤسى وشقائى ، وعادت روحى المعنوية لتسوء من جديد •

وكان على أن أملئ لضابط جلس بجوار فراشى ، كل ما كان
من تفاصيل أسرى وهربى • ولم يفتسأ يردد كلما أوغلت
فى التفاصيل :

- يا لها من مغامرة ! يكفى أنك خرجت حيا منها

وأقبل بوتر فى اليوم التالى • وما أن رأيته قادما حتى عقدت
الدهشة لسباني ولم أستطع الكلام من فرط سعادتي • واندفع
نحوى مبتسما ، تنطق ملامح وجهه بما كان يختلج فى صدره •
وعلمت منه بأنه حل محلى عندما أصبحت فى عداد المفقودين •
وأنه قد سافر بالطائرة الى امبال • وأنه لم يعلم الا اليوم بوجودى
بالمستشفى • وقد قال لى فيما قال :

- اعتقدت انك قضيت نحبك ، فحزنت لفقدك كصديق عزيز •
وضاعت منى لحظات نعبتك فيها فيما بينى وبين نفسى • وهما أنت
الآن بصورتك الممتلئة عافية وصحة ، تحملنى على أن آسى على تلك
اللحظات التى ضاعت منى هباء •

- ثم ضحك مستطردا :

- اما كان أولى بك أن تأتى معك ببعض الأسرى من اليابانيين
حتى تضفى على فرارك ما يجب له من أهمية ؟

- لو كنت أعرف انك هنا لاستجوابهم ، لكنك فعلت ذلك
وضحكت بدورى لأول مرة منذ أيام طويلة • ثم قلت له ، بعد
أن تطرق بنا الحديث الى الحرب والى وضعنا فى امبال :
- أريد أن أرحل عن امبال فى أقرب فرصة
- ولماذا ؟

فشرحت له كل ما كان من شكوكي عن مرض سابى ، وانها
وحيدة لا تجد من يعنى بأمرها ، فى وقت هى أشد ما تكون حاجة
فيه الى كل رعاية وعناية • فغلبيت انسانية بيتتر على كل ماعداها
من اعتبارات :

- فى هذه الحالة ، سنتخذ اللازم لتدبير أمر سفرك • لقد
كنت أمنى نفسى بوجودنا معا فترة أخرى •
- شكرا يا بيتتر ، شكرا • ان رجائى فيك لا يحيب •

- ٢ -

ولم أجسد مشقة فى تقرير نقلى عن طريق الجو من امبال ،
ولعل رغبة أولى الأمر فى افساح المجال لغيرى من الجرحى الوافدين
من الميدان ، هى التى ذلت كل الصعاب • غير اننى لم أوفق فى
اقتناع المسؤولين بنقلى فورا الى دلهى ، حيث كان مقررا أن أطلب
الى كلكتا لأقضى بمستشفاهها شهرا آخر •

وحضر بيتتر الى المطار ليكون فى وداعى • وسمعتة يقول لى :

- اننى لأشعر يقينا بأننا سنخرج أحياء من هذه الحرب •

- وماذا عن شعورك بالنسبة لسابى ؟

- هذا من اختصاصك أنت • أرجو أن تجدها بخير

- انك لم تخبرنى برأيك فى سسابى • اننى لا أذكر انك

صارحتنى بشئ من هذا القبيل

- انها أفضل من قابلت من النساء

- اذن فنحن متفقان

- أليس هذا ما يصادف هوى فى نفسك ؟

- بكل تأكيد

- ولذلك قلته لك

- كلا • لقد كنت تعنى ما تقول • لقد لمست ذلك من لهجة

حديثك ومن نبرات صوتك

- مهما يكن من أمر ، فاني دائما اعنى ما أقول • كما اعنى ما أصرحك به الآن من اننى سأفتقدك • وانك ستجد دائما فى صدرى هذا قلبا يحبك •

- انك لتقول دائما ما يصادف هوى فى نفسى ، وتردد ما كنت بسبيل تردده

- عيا الى مقعدك قبل أن تفيض مشاعرى • الى اللقاء •

- الى اللقاء

- وامتدت الأيدى لتتصافح فى قوة الود الصافى •

وكانت الساعة السابعة صباحا • وانطلقت بنا الطائرة من مطار امبال ، واتجهت غربا • وتطلعت من النافذة لأرى سهل ما نيبور منبسطا كبحيرة تحيط بها الجبال • وتبيننا من مكاننا ان مواقع اليابانيين على بعد يقترب من اثنى عشر ميلا من امبال • وعجبت فى نفسى من اقدامهم هذا ومخاطرهم بالتقدم صوب الهند بعد ان قمنا بتحطيم جميع الجسور فى بورما ، وتدمير جميع قواعدهم ومطاراتهم ، واستطاعتنا أن نخرق خطوطهم وندق أوتادنا فى صميم جبهتهم • ولكنها المجازفة والجرأة العمياء • بل وانهم ليعلمون علم اليقين بأنه لا أمل لهم فى كل ما يقومون به واننا بالقون أمرنا فى النهاية ، وسنقضى عليهم قضاه مبرما ، وسنكتسحهم أمامنا خارج بورما كلها • ان هذه الحرب يجب أن تنتهى • ان فترة الحروب فترة تتوقف فيها الحياة • أربعة أعوام ونصف مضت منذ قيام هذه الحرب ، توقفت فيها الحياة فى كل أنحاء العالم ، ولم يكن للناس من هم الا أحداثها عن قرب وعن بعد على حد سواء • لقد باعدت هذه الأعوام الطوال بين الناس وبين العيش الوادع الآمن ، وظنوا ان الحياة ما هى الا الحرب والقتال والحركات العسكرية • انهم لا يقرأون فى الصحف الا عن المواقع والقتال ، ولا يسمعون فى الاذاعات الا عنها ، حتى فقدوا الشعور بالاستقرار والأمان • انها يجب ان تنتهى • وهذا ما اعتقد أنه دار بخلد القائمين على أمرها ، فشددوا من هجومهم فى كل مكان • وتأملت الجرحى الممددين على محفلاتهم من حولى ، وتطلعت من النافذة الى الأدغال والجبال وما تعج به من قوات محاربة وأدوات

قتال • وقلت فى نفسى • ما كان أغنى البشرية عن كل هذا الجهد
وكل تلك الآلام •

وهبطنا الى ارض المطار فى كلكتا فى تمام العاشرة صباحا •
وحملنا فى محفاتنا الى سيارات الاسعاف التى كانت فى انتظارنا ،
واستفسر منى أحد الموكول اليهم بحملنا ، عندما تبين تحسن حالتى ،
عما اذا كنت استطيع أن أصعد الى سسيارة الاسعاف معتمدا على
نفسى ، فاجبته بأننى استطيع ذلك ، وقرنت القول بالعمل ونهضت
واقفا على قدمى ، وأشار لى الى السيارة التى يجب أن استقلها •

وانتظرت حتى عاد الرجل الى الطائرة ليعنى بأمر غيبرى •
وبدأت أخطو بعيدا عن الطائرة وعن سيارات الاسعاف ، الى برج
المراقبة دون أن أتلفت حولى • ودخلت الى البرج لأجد ضابطا برتبة
قائد جناح جالسا الى مكتبه • فحييته وسأله عن الطائرة المسافرة
الى دلهى • فتأمل ذراعى الجريح قبل أن يقول :

- هناك الكثير منها • هل تريد أن تطير الى دلهى ؟

- أجل

- هل لديك تصريح بذلك ؟

- كلا • لقد وصلت توا من امبال

- فليكن • انك لن تستطيع أن تسافر بالقطار وذراعك هكذا :

انتظر ريثما ادبر الأمر لك

وتطلعت من النافذة لأرى احدى سيارات الاسعاف تفساد
المطار • ثم تبعها بعد قليل الثانية • وفى أعقابها خرجت اثنان
والأخيرة • وفهمت من هذا أن أحدا ما لم ينتبه الى غيابى • وأنه
سيمر وقت قبل أن يتبينوا هذا من الأوراق التى سلمت اليهم •
بل وقد اصل الى دلهى قبل أن يدركوا شيئا من هذا التنبيل ،
اذا واتتنى الظروف • وبعد ذلك فليكن ما يكون ، وليفعلوا بى
ما يشاءون • بعد أن أكون قد رأيت سابى واطمأنتت عليها • وعاد
قائد الجناح ليخبرنى بأنه قد وجد لى مكانا فى احدى الطائرات
للمسافرة بعد ساعة الى دلهى •

ومن المصنف ابتعت لنفسي كوبا من عصير الليمون وبعضا
من لفافات التبغ . وكان الطقس في كلكتا شديد الحرارة مشبعا
بالرطوبة . وقد ضاعف هذا من التهاب الجرح ومن آلام ذراعى .
وقفلت راجعا في الساعة المحددة . وعلمت من قائد الجناح
بأن موعد قيام الطائرة قد تأجل نصف ساعة أخرى . فاستفسرت
منه عن موعد وصولها الى دلهى ، فأجاب بأنه حوالى السادسة ،
وأردف قائلا :

- هل أنت فى عجلو من أمرك ؟
- كلا كنت أتساءل فقط

وانتظرت ثلاثة أرباع الساعة ، قبل أن يعين لى قائد الجناح
الطائرة التى استقلها . ووقفت أنتظر حتى صعد اليها جميع الضباط
العظام الذين أزمعوا السفر بها ، ثم تأبط ضابط برتبة البريجادير
ذراعى اليسار قائلا ، « هيا بنا يا فتى » . وصعدت لأجد مقعدا
خاليا فى انتظارى بعد أن فقدت الأمل فى ذلك . وانطلقت الطائرة
بنا قبل أن ينتصف النهار . وما أن حلقت بنا فى الجو حتى شعرت
بالهدوء يتطرق الى نفسى وبراحة الاطمئنان نعم كيانى . انها الرحلة
التي سيتم بعدها اللقاء بينى وبين سابى .

الفصل السابع

- ١ -

وصلنا مطار ولنجدوق بعد السادسة بقليل . وتركت المطار
الى الطريق لاستقل احدى عربات التونجا . وأمرت السائق بالتوجه
قورا الى الفندق الذى تقيم به سابى بعد أن عينته له . وخيل الى
افئى لن أصل الى هذا الفندق أبدا ، من شدة تلهفى على هذا اللقاء
بعد أن عشت بين الأدغال وذقت مرارة الأسر والمرض . وجلست
لتضرب الى الله أن أجد سابى فى الفندق لم تغادره الى مكان آخر .

ولسا بلغت غايتي ، تذكرت اننى لا أحمل معى نقودا ، وان الروبية التى أعطانى اياها بيتر انفقتها فى شراء العصير ولفافات التبغ فى مقصف المطاز . فسالت السائق أن ينتظر . ودخلت الى الفندق وارتقيت الدرج الى غرفة سابى . وطرقت الباب ووقفت أنتظر . وكنت اسمع دقات قلبى فى اذنى . وشعرت بجفاف فى حلقى . ثم عالجت مقبض الباب بعد برهة وجيزة ، ووجدت أن الباب مغلق بالمفتاح .

وهبطت الدرج وتوجهت الى قاعة الطعام والى « الاستراحة » ولاحظت أن الحاضرين يتأملوننى فى فضول ودهشة . فقد كانت هيئتى المهوشة وذراعى المعلق الى صدرى سببا فى لفت الأنظار الى . ورحمت أبحت بينهم عن سابى مجددا فى وجوههم . ولكن سسابى لم تكن بينهم ، ولم تكن بالبهو أو بالشرفة . فقصدت أخيرا مكتب الاستقبال :

- مس وبنى ؟
- نعم يا سيدى ؟
- مس وبنى ، هل تقيم هنا ؟
- أجل يا سيدى . لحظة حتى أراجع السجل ؟
- أنا أعرف رقم غرفتها . هل لك أن تخبرنى أين هى الآن ؟
- رقم غرفتها ٣٧ . يمكنك أن تصعد اليها .
- لقد كنت هناك ، ولكنى لم أجدها . هل شاهدتها تخرج ؟
- أجل يا سيدى
- ومتى كان ذلك ؟
- فى الحقيقة اننى لا أفهم ماتريد .
- مس وبنى . هل رأيته تخرج اليوم ؟
- كلا يا سيدى .
- هل تعرف من هى ؟
- انها التى تقيم بالفرقة ٣٧
- يحق السماء ، هلا قابلتنى بمديرة الفندق ؟

— وقد قلت ذلك بصوت حاد مرتفع •
ونهض الرجل عن مقعده مسرعا ، وتحدث الى أحد الخدم •
ولما وجدت من شدة لهفتي أن الحديث طال بينهما ، تدخلت قائلاً :

— مديرة الفندق • المديرة

واختفى الخادم بعد أن قال لى :

— نعم ، نعم ، يا سيدى • فهمت

وبعد قليل عاد الخادم لينبئنى أنه لم يستطع أن يهتدى الى مكان
المديرة التى تركت الفندق • فاستقر رأيى على الاتصال بمحطة
الإذاعة فى نيودلهى • وبحيث عن رقم تليفونها بالدليل حتى وجدته •
ولما أدركت القرص سألت :

— محطة الإذاعة ؟

— كلا يا سيدى •

وأعدت المحاولة ، وتكرر النداء بلا • فوضعت الساعة وقعدت
استبدت بى الحلق والقلق معا • وعسدت الى البهو ، حيث وجدت
كولونيلا كنت قد قابلته من قبل بنفس الفندق عند زيارتى السابقة
لسابى • قلت له :

— معذرة يا سيدى • ألا يمكن أن تساعدنى فى إحاطتى بظروف
صديقة لى تقيم هنا ، مس وبى ؟ •

— ومن أنت ؟

— اسمى كوين • وأنا عائد من جبهة القتال لتوى

— ان مظهرك ينم عن ذلك فعلا

— اننى أبحث عنها

— لقد صادفت هنا فتاة صينية ، ولكننى لم أعرف اليها

— هل رايتها اليوم ؟

— لست أذكر شيئاً عنها • يحسن بك أن تستفسر عنها من
جسز بيتر تون ، انها صديقتها •

— وأشار الى سيدة تجلس فى طرف القاعة •

واتجهت الى السيدة ، وحييتها ثم سألتها :

« هل لك قى أن تتفضلى باحاطتى علما بما تعرفينه عن
مس وبى ؟

« مس وبى ؟ بكل تأكيد .. انها فى المستشفى كما تعرف ؟
« فى المستشفى ؟

« انها هناك منذ بضعة أيام

« ماذا بها ؟ هل تعرفين شيئا عن حالتها الصحية ؟

« أعتقد ان الأمر كان يستدعى اجراء عملية جراحية فى رأسها»
هذا كل ما أعرفه

« وما اسم المستشفى ؟

« مستشفى الملك جورج • يلوح لى أنك قلق • هل يمكن
أن أقوم بشئ من أجلك ؟

« كلا شكرا • اننى ذاهب فورا الى المستشفى

وخرجت الى عربة التونجا التى كانت فى انتظارى ، وأسهرت
بها الى المستشفى • وما أن بلغتها حتى قفزت من العربة واندفعت
الى داخل المبنى • وقابلنى أحد الموظفين الهنود مستفسرا عن بفتى»
فأخبرته بأننى أرغب فى زيارة مس وبى •

« مس وبى ؟ بكل تأكيد • هل لك أن تنتظر قليلا

« أرجوك أن تقودنى فورا اليها

« آسف يا سيدى • يجب أن تنتظر • هذه هى الأوامر

فوقفت أنتظر على أحر من الجمر • وأخيرا أقبلت إحدى
المرضات تسألنى :

« هل ترغب فى زيارة مس وبى ؟

« أجل ، مس وبى

« هل أنت صديق قديم لها ؟

« أجل • أجل

« يجب أن أخبرها أولا • لا يصح أن نقحم عليها الحجر»
مباشرة

« ولم لا ؟

- ان المفاجأة دون مقدمات قد تضر بصحتها سأذهب لاختبارها
وبعد قليل ...

- هل هي بخير ؟

- لقد مرت بظروف عصبية • ان الجراحة التي اجريت لها
تعتبر من اشد الجراحات خطورة
- ولكن الآن ... كيف حالها ؟

- اننا في انتظار النتيجة • لقد انقضت عشرة ايام حتى الآن
- أرجوك ان تذهبي لاختبارها • قولي لها ميشيل
- آه • ميشيل كوين • لقد تحدثت عنك كثيرا

- أرجوك أن تسرعي • أرجوك

وتركتني وانصرفت • ووقفت انتظر في قلبي ، أتأمل السقف
حينما ، واخفض بصري الى أرضية المصانح حينما آخر ، حتى أقبلت
المرضة أخيرا بعد برهة خلتها دهرًا لتعلن الى بانى أستطيع أن
اصعد لروية سابى •

وقد امتنى في ابهاء المستشفى ، الى أن رأيت باهادور جالسا
إمام إحدى الجسرات • وما أن وقع بصره على حتى نهض
والإبتسامة تعلو شفتيه والحزن يشع من عينيه • قللت له :

- باهادور •

- سيدى ميشيل •

- كنت واثقا من اننى سأجلك هنا •

- انها تنتظرك ياسيدى •

ودخلت لأجد سابى مستلقية فى فراشها ، وقد كست
الضفادات قمة رأسها • وكان وجهها شاحبا ممتعا • وشمرت
بفصة فى حلقى لم استطع معها كلاما • فمشيت على شوق حتى
بلغت حافة فراشها وجلست عليه ، متأملا وجهها الهادى ، محدقا
النظر فى عينها • وتحسنت العيون وقاضت الدموع من بين
الجفون • وتعلقت الأبصار شوقا وحنينا وهياما • ثم انخرطت
سابى فى بكاء هادى ، ولم تزايل الابتسامة وجهها •

قلت لها ، بعد أن زالت عنا مشاعر دفعة اللقاء بعد هذا
الحرمان الطويل ، وبعد أن حكى الدموع ما صادفنا من عذابي
فيما مر بنا من أيام :

- سابي .. ماذا فعلوا بك ؟
- وانت ، علا حدثني بما فعلوه بك ؟
- لقد أنستني فرحة اللقاء كل الأمل . خبريني أنت من
أحوالك ..

- كما ترى .. « وأشارت الى رأسها » هذه الجراحة .
- لقد أخفيت عني مرضك .
- لم أود أن يفسد شيء ما سعادتنا . كنت أريد أن أعيش
في حضري السعيد الذي جاد علي به أنقدر .
- لماذا لم تبرقي إلي مارجريت وجنيفر لتكونا بجوارك ؟
- ان تلك البراعم الصغيرة يجب أن يساعد بينها وبين كل
ما يدخل الحزن الى قلوبها . انك الآن تجلس امامي ، وهذا كل
ما كنت أفيقه .

ثم رفعت الى عينيها مستطردة :
- كنت أخشى الا أراك قبل ان تأتي النهاية .
- لا أحب ان اسمع منك ذلك . انتي الآن معك ، وسأظل
معك وإلى جوارك حتى يتم شفاؤك .
- هل تحبني يا ميشيل ؟

- هذا كلام معاد . انني أحبك حباً ملك على زمام قلبي .
حب اختلط بكل ذرة من ذرات كياني ، فلم يغادرني طيفك في أية
لحظة من لحظات حياتي ، وأنا بعيد عنك هناك بين الأدغال
والأحراش ، ان صوتك كان دائماً في أذني ، وعبيرك كان يملأ
هلي كياني . وأحب أن أؤكد لك انني لم أحب أو لم أعرف الحب
قبل أن أراك . وما اظنني سأعرفه من بعدك .

- كلا .. لست أحب أن اسمع منك شيئاً من هذا القبيل
عن المستقبل . أنه ليسعدني أن أعلم بأنك يمكن أن تسعد مع
الغيري ..

— صابى .. عندما يتم لك الشفاء ستتزوج مرة
 — ميشيل . ألم تعدنى بالأا تعود للحدث فى هذا الموضوع
 اننا لن نتزوج أبدا .
 — ولماذا لا تريدان الزواج منى ؟
 — بل هذا هو كل ما كنت أصبو اليه ، ولكن
 وهزت رأسها ولم تتم حديثها . وتطلعت الى بعينين قد ملئت
 اى وحيرة .

- ٢ -

لم يسمح لى الطبيب بان أمكث أكثر من نصف ساعة ، ولما
 أحتجت صابى على ذلك ، وعدها بأنه لا مانع من عودتى بعد ساعة
 لتحياتها تحية المساء .
 ولما صرنا فى الدهليز خارج غرفتها سألته :
 — هل هى بخير ؟ وهل لديها من الحيوية ما تستطيع به ان
 تقاوم وتجتاز هذه المرحلة ؟
 — وماذا ترى انت ؟
 — أرى انها لا يمكن ان تموت . انها تفيض حياة ورغبة فيها .
 — لقد أجريت لها جراحة المخ . وهى جراحة غير محققة
 النجاح ..
 — ولكنها بخير بعد عشرة أيام ؟
 — ان الانسان لا يمكن ان يجزم بشيء . وما عليك الا ان تنزع
 بالصبر وتنتظر . انها قوية الأعصاب ثابتة الوجدان . وما عليك
 الا أن تقوى عزيمتها وتحلى أمامها بالشجاعة .
 — أعرف هذا ، كما أعرف انها أكثر شجاعة منى .
 — انها كانت تعلم بأنها فى طريقها الى النهاية ، لقد بدأ هذا
 معها منذ عامين .

- ولماذا لم تسرع بإجراء الجراحة من قبل ؟
- ربما كانت قد جنبت نفسها الكثير من الألم .
- وهل كانت تتألم كثيرا ؟
- بدون شك . . وبالذات فى السنة الأخيرة .
- ولم اكن اعلم ؟ كنت سعيدا غارقا فى هنائى ، وكانت هى
شقية غارقة فى آلامها . .

- لم يكن بوسعك ان تفعل شيئا .
- كان بوسعى ان اخفف من آلامها على الأقل .
- تستطيع ذلك الآن ، بما يجب ان تفعله لتقوى من ووجع
المعنوية .

- فليكن . . سأحاول بكل ما فى وسعى أن أبدو كذلك فى
حضرتها . .

- كلا . انها ستحس ذلك منك . يجب أن تكون قويا شجاعا
وأنت بعيد عنها ، وأنت معها .

- هذا صحيح . سأحاول أن أكون كذلك فى جميع الأحوال .

ولم اتحمل قضاء الساعة فى غرفة الانتظار بالمستشفى . .
لفادرتها الى الطريق حتى أجد فى نفحات النسيم ما ينعشنى ،
وفى القمر الصاعد الى الأفق ما يؤنس وحدتى . وذكرنى هذا
القمر الباهت شروقا بليلة سابقة قضيناها معا من خمسة وعشرين
يوما . ولكن هل يمكن أن تحصى الأيام والساعات على حد سواء
. . يوما يوما . ساعة وساعة . فهذا يوم وذاك جيل بأسره . .
وتلك ساعة وهذه عمر بطوله . وحضرنى قول وايلد فى ذلك :

« ان لحظة العذاب طويلة طويلة ، ليس لها حدود أو نهاية »

وعدت الى غرفة سابى فى تمام العاشرة : ووجدتها فى
فراشها تستقبلنى بإبتسامها العذبة ، وبعينيهما الجميلتين . .
تفيضان حبا وحنانا . وجلست على حافة الفراش ، وبحثت عن

بدها تحت الغطاء ورفعتها الى صدرى اقبل اناملها واحدا بعد الآخر .. قالت لى بعينين تفيضان اعتذارا :

— هل ساءك رفضى قبول الزواج منك ؟

— كلا . اننى انا الذى لم احافظ على وعدى . لندع الحديث فى هذا الموضوع الآن .

— ارجو ان تسمعنى ما تريد ان تتحدث به الآن .

— وماذا عسائ ان اقول ؟ .

— ماذا اعددت لبيتنا الذى سنقيم به بعد الحرب ؟

— هذا يتوقف على الجهة التى سنقيم بها . اهى لندن ام ريفها .

— انى افضل الريف ، على ان يكون قريبا من لندن ، حتى نستطيع ان نزورها من حين لآخر .

— فليكن . ستكون اقامتنا فى جلوشىستر شاير ، فى بيت من الطراز القديم .

ورحت احدثنا عن المستقبل وعن النظام الذى سيكون عليه بيتنا وعن حديثتنا وعما سيكون بها من زرع وازهار . كما تحدثنا عن عطلات آخر الاسبوع وكيف سنقضها . ولاحظت وانا مندفع فى حديثى متحمسا للمستقبل ان دمعسة طفرت من عينيها . فتوقفت لاسألها :

— هل فيما اقوله ما يبكى ؟ .

— كلا . انها دموع السعادة والفرح .

— احقا ما تقولين ؟ .

— اجل . اننى جِد سعيدة قريبة العين .

- هذا هو كل ما أبقيه من حياتي . أن أراك سعيدة هائجة
منسرحة الصلوة .

ثم تطرق بنا الحديث الى أيام سعادتنا الماضية . كيف التقينا
وماذا كان شعورنا . وتنقلنا بالذكري من مكان الى مكان ، ومن
لحظة الى أخرى ، حتى قالت لى :

- ما أظن الا أن كل هذا كان حلما جميلا ارتاحت اليه نفسانا
وسعد به قلبانا ، انه لم يكن فيه من حقيقة الحياة شيء .
- بل أنه هو الحياة بعينها ، وأما ماعداه فهو العدم .

- ٣ -

أقبلت الممرضة وهى تنظر فى ساعتها ، ولكننى كنت لا أريد
أن أترك سابى ، وكنت أفضل البقاء الى جوارها ، حتى أسرع اليها
فى أية لحظة تشتد بها آلامها . ولما أبدت رغبتى هذه للممرضة
أبت على ذلك ، مؤكدة استحالة تحقيقه . فقلت لها :

- ولكننى لن أزعجها . وسأقضى ليلى على هذا المقعد .
- انها أوامر الطبيب .

- إذن فلأنصرف على أن يسمح لى بالعودة مرة أخرى فى
الليل .

- لن أسمح لك فى المرة القادمة بأكثر من خمس دقائق .
- فليكن . أعدك بذلك .

ونهضت منصرفا . ووجدت باهادور لا يزال خارج الغرفة .
فاخبرته بأننا سنتوجه معا الى الفندق بعد ساعة ، حيث يمكننى
أن اغتسل واستريح لنعود فى الصباح . واستفرت منه عن
مفتاح غرفة سابى الذى كان محتفظا به معه ، لأنها كانت هى التى
أوحت الى باستعمال غرفتها ، حيث لم يكن لى غرفة بالفندق .
ولاحظت أن الأسى يفيض من عينيه ، فقلت له :

- لا تقلق . كل شيء سيسير على ما يرام . ان صحتها
مستحسن عما قريب .

فأبتسم ، ولكننى قرأت فى عينيه نظرات الأمل المفقود .
فأستدرت منصرفا خشية أن تنهار أعصابى وأفقد السيطرة على
إمام نفسى ومشاعرى .

وخرجت الى الطريق مرة أخرى . خرجت لأقضى ساعة
قبل أن أعود إليها . خرجت لاستسلم لآلامى ولأحزاني .
وحاولت جاهدة أن أباعد بينى وبين خاطر موتها . ولم أستطع
أن أصور لنفسى أن سابى بكل ما فيها من حيوية ونشاط تستسلم
للموت القاهر الغلاب . واعداد هذا الخاطر الأمل فى نفسى وشد
من عزمى .

ولما وافت الساعة الثانية عشرة ، عدت أدراجى استحثا
الخطى . ودلفت الى المستشفى التى خيم عليها السكون .
وإجتزت ابهاءها ، ولاح لى أنها خلت من كل الأحياء . وحدثت
نفسى بأننى لن أستطيع أن ألقى الى سابى بتحية المساء ثم انصرف
وقررت أن أجلس خارج غرفتها كما يفعل باهادور . وعندما بلغت
الدليلز الأخير ، سمعت صوت باب يفتح ، ورأيت الممرضة تخرج
من غرفة سابى . ولما اقتربت منى لاحظت أنها مجعدة متعبة
أقبلت لها :

- خمس دقائق فقط كما صرحت بذلك .

- أن الطبيب معها الآن .

- هل أنتظر ريثما يخرج ؟

ولكنها لم تعقب بشيء . فأعدت سؤالى قائلا :

- هل أنتظر حتى ينصرف ؟

- ألم تكن تعلم بأن ذلك لا محالة واقع ؟

- ماذا تعنين ؟

- لقد لفظت أنفاسها الأخيرة منذ نصف ساعة .

- ماتت ؟ سابى ماتت ؟

فأوامات برأسها وهى تتأملنى اشفاقا . ثم قالت أخيرا :

- أجل . كنا جميعا نعرف أن ذلك سيقع إن عاجلا وإن آجلا



وانه سيقع دون سابق انذار أو ألم . انها لم تشعر بأى ألم . لقد
ماتت وهى فى قمة سعادتها . لقد صارحتنى بأنها تعلم بان
نهايتها قد اقتربت بعد انصرافك مباشرة . وقالت لى انها لا تريد
للحظات هذه النهاية أن تطول اشفاقا عليك ، ولقد تم لها ما ارادت
فعلا . وسالتنى ان اؤكد لك انها كانت سعيدة قريبة العين .

ثم وضعت يدها على كتفى مستفسرة :

— هل تود ان تراها ؟ .

— كلا . لا اريد ان اراها . اننى لا اطيع ان اراها جثة هامدة .

— هل تحب ان تستريح قليلا ؟ .

— كلا . لا راحة لى بعد اليوم .

— هل هناك ما يمكن ان افعله من اجلك ؟ .

— كلا . شكرا . لقد خرج الأمر من ايدينا جميعا .

الفصل الثامن

- ١ -

ومشيت على امواج من الأسى الذى عمر به قلبى ، ونخطوت
فى لجة من الحزن الدفين العميق الذى يكاد يأتى على مافى من حياة
وخرجت من المستشفى لأجد أمامى سائق عربية التونجا واقفا
ليطالبنى بأجره ، فسألته ، أن ينتظر وعدت الى حيث وجدت
باهادور وقد فاضت عيناه حزنا وأسى . وطلبت من باهادور بعض
الروبيات لأنقد السائق أجره . وقال لى وهو يسلمنى أكثر مما
أنا بحاجة اليه .

- ألى نعود الى الفندق ؟ .

- كلا .

- أين ستقضى الليل ؟ .

- فى اى مكان ولن أعود أبدا الى غرفتها .

- هل تسمح لى بأن أكون معك ؟ .

- كلا فلتبقى أنت هنا وسأعود اليك فى الصباح .

وعدت الى السائق وتقدته أجره وصرفته .

وبخطوات متخالفة سرت الهويىنا فى طقس حار وتحت ضوء
قمر يتوسط صفحة السماء . وكنت أرى الناس من حولى
أشباحا تروح وتفدو . وسرت على غير هدى وب عقل قد توقف عن
التفكير . وكنت أقرب الى الاموات منى الى الأحياء ، جسدا
يتحرك وقد تجرد من كل مشاعر البشر . ومن كل ما يميز الانسان
من غيره من الكائنات حتى سابى لم أعد افكر فيها أو فيما كان من
أمرها .

وظللت هائما على وجهى هكذا حتى الساعة الواحدة بعد
منتصف الليل ، وعجبت عندما تبينت أن ساعة واحدة فقط قد
مرت منذ أن واجهتنى الممرضة بنبا موتها . ساعة واحدة فقط
كانت بمثابة دهر بأسره . وشعرت بالتعب والإرهاق ، ولكننى
واصلت سبرى حتى يزداد تعبى ويتضاعف جهدى . وينال منى
الإرهاق حد البلوغ بى الى ما أريده لنفسى من هلاك .

ووجدتنى أمام فندق كبير فخم . ودخلت أسسأل موظف
الاستقبال أن يحجز لى غرفة ، فاعتذر بأن جميع غرف الفندق
مبسكونة حتى شهر يونيو ، فالحفت فى رجائى حتى رق الرجل
لحالى ، بعد أن تبين من ملابسى ومن ذراعى المعلقة الى صسدرى ،
مسوء حالتى وحاجتى فعلا الى الراحة . ووعدنى بأنه سيقوم
بتدبير ذلك لى . وانتقط سماعة التليفون ، ووقفت انتظر . ولما
طال بى الانتظار ، رحت أذرع البهو بخطواتى قتلا للوقت . وبعد
أقليل رايت رجلا وسيدة مقبلين فى اتجاهى . وتبينت فيهما
ماريو ودوركاس . وصاح ماريو فرحا بلفائى :

— ميشيل :

— ماريو :

— يا الهى . لقد حسبتك . . أوه ، بحق السماء . ماذا فعلت
بنفسك ؟ .

— اننى بخير .

— متى غادرت أمبال ؟ .

— هذا الصباح .

— ولكن ماذا تفعل هنا ؟ .

— أحاول حجز قرفة لى . وانت ؟ .

— لقد عقد زواجنا بالأمس . ومنقضى الليل هنا ثم نرحل
الى رحلة شهر العسل الى الجبال غدا .

- تهنتنى :.. كم كنت أود أن أقبل العروس . ولكنك ترى ..
- ثم قاطعتى دوركاس قائلة :
- كيف حال ساي ؟
- ساي ؟
- ألم تقابلها ؟
- أجل !
- هل هى بخير ؟
- آوه .. بخير جدا .
- وهنا أقبل الموظف مبتسما وقال :
- لقد دبرنا لك غرفة بالمخزن .
- فقلت دوركاس : « ولماذا لاتشاركنا غرفتنا ؟ »
- ثم تأملتني مستطردة :
- انك بحاجة لمن يعنى بأمرك ..
- شكرا .. ان فيما أعد لى الكفاية ..
- فالتفتت الى موظف الفندق قائلة :
- انه سيساركننا حجرتنا ..
- فقلت لها محتيجا :
- اتكما فى شهر المقبل ..
- آوه ، هيا بارجل .

قال ماريو ذلك وهو يتأبط ذراعى ؟ وارتقيت الدرج معهما ؟ ودخلت غرفتهما مستسلما ، لأننى لم أستطع أن أطيل الجسد ! أو أقاوم دعوتهما الملحة : .. وكانت حجرة فسيحة لطيفة الجو : وألقيت بنفسى على أحد المقاعد ريثما استبدلت دوركاس ثيابها فى غرفة الحمام . وشرع ماريو يعد لى فراشى . وكانا مقبلين على توفير كل وسائل الراحة لى بكل حماسة وسرور . بل وبلغ بهما ذلك حدا جعلهما يعرضان على أن أحلّ محلهما فى فراشهما الوثير وبلدت كثيرا من الجهد حتى صرفتهما عن إصرارهما ، وسمحا لى

بأن اقضى ليلتي في الفراش الذي أعده ماريو بفرقة الاستحمام .
ولم أكن أرغب في ذلك فقط لأبعد بين وجودي وبين مضايقتهما .
بل لأنني كنت أود أن أخلو الى نفسي ، فيما يشبه ان يكون
قبرا لي .»

وآثرت الا أخيرهما بأمر سابي ، لأن في ذلك إعادة لفظية لكل
ما حدث ، الأمر الذي كنت أخشاه وأتجنب الخوض فيه حتى
لا أنهار وأضعف . وساعدني ماريو على خلع ثيابي ، والبسني
« منامة » من الحرير الفاخر الأبيض . ثم سألني ان استلقي على
الفراش وقام بمساعدة زوجته بتنظيف وجهي ويدي بأسفنجة
جبيلة ، بكل عناية ودقة . وأخيرا جلس ماريو على حافة البانيو
قائلا :

— لملك الآن أحسن حالا .. لقد كنت قريب الشبه ، عندما
وقع نظري عليك في بهو الفندق ، بالأجداد وقد بعثت من القبور .
وآردقت دوركاسي قائلة :

— لن نرحل قبل ان نودعك المستشفى غدا .

وقاما على خدمتي وتوفير كل وسائل الراحة لي . واتي ماريو
بمنضدة صغيرة وضع عليها بعض لقاكات التبغ وكوب ماء .

وعندما وقفا بالباب يتمنيان لي ليلة سعيدة سالتهما :

— الى أين سترحلان غدا ؟

— الى كشمير .. ولكن لن يكون ذلك قبل ان نطمئن على
أحوالك .

— ان طقس كشمير يدع في شهر ابريل .»

— لقد أعددنا العدة لقضاء شهر العسل بين الجبال .

وانصرفا بعد ان أغلقا الباب برفق . واطلمت الدنيا من حولي
هواقت ظلام نفسي ، وحملت بعيني في الظلام محاولا ان اخترق
هيجيه ، وشعرت بنفصة في حلقى تصعد حتى بلغت عيني دموعا

ونحيباً ، وأطبقت بالوسادة على وجهي حتى لا يسمعي أحداً .
وبكيت ما شاء لي البكاء ، وانهمرت دموعي تحكى ما فاضت به
نفسي ، وتمثلت أمامي تلك الرياح الفثوم تأتي على الأزهار
اليانعة فلا تبقى ولا تذر منها شيئاً ، بالرغم من حرص أصحابها
على سلامتها ، وتحذير سيفهم المشهر لمن تحدثه نفسه بقطعها ،
هذا التحذير الذي لم تستطع الرياح أن تقرأه ، فأتت عليها بقسوة
ولم ترحم غصنها الغض الرقيق ، ولم أستطع أنا بكل ما عمر به
أقلى من حب ، أن أدفع عن سابى غائلة الموت الرهيب .

« انتهت »

الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز البحوث عامع البقاني

في العالم العربي
من القاهرة

يصدر عنها

دراسات عالية الكتاب الماسي

كتب سياسية

مذاهب ومفاهيم من الشرق والغرب

Bibliotheca Alexandrina



0540436

كتاب قومية

في الشرق والغرب

اقتناء للطالب

اقتناء للبحر

رسائل هامة

دراسات اقتصادية

مكتبات الدار

نيويورك

لندن

البحر

بيروت

طرابلس

بغداد

البحر

الاسكندرية

القاهرة

مجلة اريزاقو التلفزيون

مجلة نوار الوطن

ARAB OBSERVER

ARAB OBSERVATEUR

Le Scribe ARAB REVUE

Le Scribe REVUE ARABE

El Escriba REVISTA ARABE

Des Scribes REVUE ARABE